

(رسالة التوحيد)

تأليف

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده المصري

أحد أعضاء مجلس إدارة الازهر الشريف

والمستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

(حقوق الطبع محفوظة لمؤلف)

(وتطلب من عند السيد عمر الخشاب الكتبي بالسكة الجديدة والازهر)

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية بيوتاق مصر المحمية

سنة ١٣٠٥

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد و اياك
نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين

﴿وبعد﴾ فلما كنت في بيروت من أعمال سوريا أيام يعدي عن مصر
عقب سرادش سنة ١٢٤٠ هـ حجيرة زديت في سنة ١٣٠٣ شمس
بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت أن
المختصرات في هذا الفن قد لا تأتي على الغرض من افادة السلامدة
والمطولات تعالج عن أفهامهم والمتوسطات ألقت لزمن غير زمانهم فرأيت
من الاليق أن أملئ عليهم ما هو أوسع بحالهم فكانت أمانى مختلفة تتغير
بتأثير طبقتهم أنزجها إلى كفاية الطالب ما أمنى على انفرقة الاولى في
أصول لا يصعب تناوله وإن لم يهتد تناوله تمهيد مقدمات وسير منها إلى
المطالب من غير نظر إلى جهة دليل وإن جاء في التعبير على خلاف

ما عهد من هيئة التأليف راميا الى الخلاف من مكان بعيد حتى قد
 لا يدركه الا الرجل الرشيد غير أن تلك الامالى لم تحفظ الا في دفاتر التلامذة
 ولم أستبق لنفسى منها شيئا وعرض بعد ذلك ما اسئدة دمنى الى مصر
 وكان من تقدير الله أن أشغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على
 ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت الى أن خطرلى من مدة
 أشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسى ويصبو اليه عقلى وحسى وأن
 أشغل أوقات فراغى بعمادة شئ من علم التوحيد علما منى أنه ركن العلم
 الشديد فذكرت سابق العمل وتعلق بمثله الامل ولكيلا أنفق من الزمن
 ما أنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه عزمتم أن
 أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الى ما تلقاه بين يدي و ذكرت ذلك
 لاختى فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الاولى فطلبتة وقرأته فاذا هو
 على مقربة مما أحب قد يحتاج اليه القاصر وربما لا يستغنى عنه
 المكثر على اختصار فيه مقصود ورقوف عند حد من القول محدود
 قد سلك فى العقائد مسلك السلف ولم يعب فى سيره آراء الخلف وبعد
 عن الخلاف بين المذاهب بعد عليه عن أعاصير المشاغب لكن وجدت
 فيه إيجارا فى بعض المواضع قد لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض
 ما تمس الحاجة اليه وزيادة عما يجب فى مختصر يشهد أن يقتصر عليه
 فبسطة بعض عباراته وحرر ما غرض من مقدماته وزدت ما أغفل
 وحذفت ما فضل وتوكلت على الله فى نشره راجيا أن لا يكون فى قصره
 ما يحمل على إغمال أمره أو بغض من قدره فإمن أحد بأصغر من
 أن يعين ولا بأكبر من أن يعان والله وحده ولى الأمر وهو المستعان

مقدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن يتقى عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمنع أن يلحق بهم أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له ومعنى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو اثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلقه الاكوان وأنه وحده مرجع كل ككون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كالتشهاد به آيات الكتاب العزيز وسيأتي بيانه وقد يسمى علم الكلام إمالان أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الاولى هي أن كلام الله المثلوث حادث أو قديم وإمالان مبناه الدليل العقلي وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه ولما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول الارشاد الاستدلالي ثم "مذهب" شبه بالفرع عنها وان كان أصلاً لما يأتي بعدها وإمالانه في بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تعيينه مسائل الحجة في علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للفرقة بينهما

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات كان معروف عندنا قبل الاسلام ففي كل أمة كان القائلون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأنييه موكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك لكنهم كانوا قبل ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي وبناء آرائهم وعقائدهم على

ما في طبيعة الوجود أو ما يستعمل عليه نظام الكون بل كانت منازع
العقول في العلم ومضارب الدين في الأزام والعقائد وتقريبها من مشاعر
القلوب على طرفي نقيض وكثيرا ما صرح الدين في لسان رؤسائه أنه
عدو العقل نتائج ومقدماته فكان جمل ما في علوم الكلام تأويل
وتفسير وادهاش بالمعجزات أو إلهام بالخيالات يعلم ذلك من إلمام
بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية

جاء القرآن فأنهتج بالدين منهجاً لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة
منهجا يمكن لاهل الزمن الذي أنزل فيه ولن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه
فترك الاستدلال على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به
على النبوات السابقة وحصر الدليل في حال النبي مع نزول الكتاب عليه
في شأن من البلاغة بعجز البلغاء عن محاكاة فيه ولو في مثل أفسر سورة
منه وتارة من مقام الألوهية ما أذن الله له وما أوجب علينا أن نعلم
لكن لم يطالب التسليم به لمجرد آيات بحكاية ركبته دعي بربن رحكي
مذاهب المخالفين وكررها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر
وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والاعتقان على أنظار العقول
وصاياها لا مان فيها ته صل بذلك إلى اليقين بعبادة ما اتعاه ودعا إليه حتى
نه في سيايق قصص أحوال السابقين كان يترأى للحنانة سعة لا تغير
وقاعدة لا تبدل فالسنة الساتية دخلت من ذلك ولن تبس سنة الله
تبدلاً وصرح (إن الله لا يغير ما بعثه حتى يغيره وأما أنفسهم) واعتضد
بالدليل حتى في باب الأدب فقال (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك
وبينهم عدو وكأه ولي حليم) وتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب

مقدس على لسان نبي مرسل بتصریح لا يقبل التأويل وتقريرين المسلمين
كافة الامن لا ثقة بعقله ولا بدینه أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به
الامن طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه
بما يوحى به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف
عليه فهم معنى الرسالة وكانت صديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن
الدين ان جاء بشئ قديع لا على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند
العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات وإن كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به
في مخاطبات الاجيال السابقة فن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في
الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزاليه أموراً يوجد
ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض
في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل
المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكّل الامر
في الثواب والعقاب .. شبيهة له ومثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه في
هذه المقدمة فأعتبر حكم العقل مع ورود أمثال هذه التشابهات في
النقل فسمح بالانناظرين خصصوا دعوة الدين الى الفكر في المخلوقات
لم تكن محدودة بحد ولا منسرة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو موثوق
الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنوس في التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة والسراج في
ظلمات السبيل رفقى الخليفةان بعده ما قدر لهم من العمر في مدافعة
الاعداء رجع كثة اولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع

عقولهم ليستلوهما بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل رد اليهما وقضى الامر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لافي أصول العقائد ثم كان الناس في الزميين منهم من اشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يورثهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الامر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأقضى الى قتله هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الاسلام بأهله صدمة زخرحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقى القرآن قائما على صراطه (ان نحن نزلنا الذكروا ناله لحافظون) وفتح للناس باب لتعدي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعي وأشهر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم وغلب الغضب على شيرس الغالين في دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الامانة منهم فقصبت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين في تلك العتة عبد الله بن سبا يهودي أسلم وغلا في حب على كرمته ووجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو الى أنه الاحق بالخلافة ووطن على عثمان فنقله الى مصر فوبى رفيها أعوانا على فتنته الى أن كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر عذبه في عهد على فنقله الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المباعين للخليفة الرابع ما عقدوا

وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين غير أن
 بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم
 المذاهب في الخلافه وأخذ الأحزاب في تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على
 رأى خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل
 وغلا كل قبيل فافترق الناس الى الشيعة وخوارج ومعتدلين وغلا
 الخوارج في عهد مروان الاول فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم
 وطلبهم حكومة أشبه بالجهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمانا طويلا
 الى أن تضعع أمرهم على يد المهلب بن أبي صفرة وانتشرت فارتهم في
 بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتنة وبقيت منهم بقية الى اليوم في أطراف
 أفريقيا واجبة من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو
 بعض ذريته الى مقام الألوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك خلاف في
 كثير من العقائد

غير أن شيئا من ذلك لا يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ولم يحجب ضياء
 الهدى عن الناس من مشار التزاع وكان الناس يدخلون فيه
 أغواجا من الفرس والسريرين ومن جاوهم والمصريين والأفريقين
 ومن بينهم واستراح بهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الاسلام
 وأن لهم أن يستغلوا في أصول العقائد والاحكام ما عاهداهم اليه سير
 القرآن اشتغالا يحصر فيه على النقل ولا يهتم فيه باعتبار العقل ولا
 ينضرن فيه يتألمون ووجد من أهل الانحلال من انتدب نفسه
 لانتشار العلم والقياس في رضة التعاليم ومن أشهرهم الحسن البصري
 فكان له مجاز في تعاليمه والافادة في مصر فيجتمع اليه الطالبون من كل

صوب وتمحون فيه المسائل من كل فوج وكان قد التحف بالاسلام ولم
يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا
بينه وبين ما وجدوه فشارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن
واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر وشاركه
الخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رؤس المشاقين تعاوين
المسلمين وكانت أول مسألة تطهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال
الانسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يأت
اختلف فيها واصل بن عطاء مع أستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم
أصولا لم يكن أخذها عنه غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على
قول كان على رأي أن العبد مختار في أعماله الصادرة عن علمه وإرادته
وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الانسان في عمله الارادى
كأعضاء الشجرة تركتها الاضطرابية كل ذلك وأرباب السلطان من
بنى مروان لا يحفلون بالامر ولا يعنون برده إلى أصل يرجعهم على
أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ما شاء ثم لم يقف الخلاف عند المستثنين
السابقين بل امتد إلى اثبات صفات المعاني للذات الالهية أو نفيها عنها
والى تفرير سلطة العقل في معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها
شروعها بآداب (غوا في تأييد خطة القرآن) أو تخصص تلك السلطة
بالاصول الارلى على ما سبق بيانه ثم غاى آخرون رسمه إلى تناقض فحجوها
بالمرة وخالفوا في ذلك طريقة الكتاب عنانا للأولين وكانت الاراء في
الخلفاء والخلافة تسير مع الاراء في العقائد كلها مبنى من مباني الاعتقاد
الاسلامى

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم
وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبتته العلم بدون تفرقة بين ما كان
منه راجعاً إلى أوليات العقل وما كان سراً في نظر الوهم فخلطوا بعارف
الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ولجوا في ذلك حتى صارت
شيعةهم تعد بالعشرات أيدهم الدولة العباسية وهي في ريعان القوة
فغلب رأيهم وابتدأ علماءهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بذهاب
السلف يناضلونهم معتمدين بقوة اليقين وإن لم يكن لهم عظماء من
الحاكمين

عرف الأولون من العباسيين ما كان من القرس في إقامة دولتهم وقلب دولة
الأمويين واعتمدوا على طلب الانصار فيهم وأعدوا لهم مناصب الرفعة
بين وزرائهم وحواشيهم فعلاً أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين في شيء
وكان فيهم الماسوية واليزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية
فأخذوا يفتشون من أفكارهم ويشيرون بحالهم وبحالهم إلى من يرى
مثل آرائهم بأن يمتدوا بهم فظهير الالهة وتطاعت رؤس الزندقة حتى صدر
أمر التصدير بوضع كتب للكشف شبهاتهم وإبطال من اعتمد

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم فتكامل غوره وبناء علم
يتشامخ علوه وبدأ كما انتهى مشواً بعبادى النظر في الكائنات بربا على
ماسنه القرآن من ذلك وحدثت قصة القول بخلق القرآن أو أريسته
وانتصر الأول جبر من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح
بالأرية عدد صغير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو التعفف عن
النطق بما فيه مجازاة البدعة وأهين في ذلك رجال من أهل العلم والتقوى

وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين
 على هذا كان النزاع بين ما تطرف من تطرأ العقل وما توسط أو غلب من
 الاستمالة بظاهر الشرع والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية
 واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده
 وما من بواطن القلوب وملكات النفوس فرض الترويض عليه وكان وراء
 هؤلاء قوم من أهل الحسول أو الدهر بين طلبوا أن يحملوا القرآن على
 ما جاوره عند تصافهم بالاسلام وأفرطوا في التأويل وحولوا كل عمل ظاهر
 إلى سر باطن وفسر والكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطا
 عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف
 في التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن
 معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وبخصوصهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياءهم كان
 أمرا بخلاف بينهم جللا وكانت الايام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من أخذ
 بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه إلى أن جاء الشيخ أبو
 الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا
 بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول
 النظر وارتأى في أمره الأقول وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره
 الخبالة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كإمام الحرمين
 والاسفراييني وأبي بكر الباقلاني وغيرهم وسموا رأيه بذهب أهل السنة
 والجماعة فانهم هزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوة
 الواقفين عند الطواهر وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر

ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا ثلث قليلة في أطراف البلاد
الاسلامية

غير أن الناصرين للذهب الاشعري بعد تقرر رهم ما بنى رأيه عليه من
قواميس الكون أو جيبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها
كما يجب عليه اليقين بما تؤذي اليه من عقائد الايمان ذهبا منهم الى أن
عدم الدليل يؤذي الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى أن جاء
الامام الغزالي والامام الرازي ومن أخذ مأخذهم خالفوهم في ذلك
وقررروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل
على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجج في الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من
هم أهل النظر من الفلاسفة لا تحصيل العلم والوفاء بما يدفع اليه رغبة
العقل من كشف مجهول أو استكشاف معقول وكان يمكنهم أن يبلغوا من
مطالبهم ماشاؤا وكان الجمهور من أهل الدين يكتفهم بحمايتهم ويدع لهم
من السبل لا تباينة وتباعد في سبل التمسك بالدين والالتزام بالصناعة
وتقريبه أركان النظام البشري بما يكسبهم من سائر الاسرار المكنونة
في ضمائر الكون مما أباح الله لسانه لتناوله بقوله ما وادكار ما في قوله
(خلقكم ما في الارض جميعا) اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا وما
كان عاقل من عقلاء المسلمين لياخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في
سبيلهم. بعد ذلك ما رفع القرآن من شأن انفس وما وضعه من
الحكمة بحيث ينتهي اليه من اسماء التمييز بين الحق والباطل والضرر
والنفع وبعد ما صرح من قواعده السلام انتم أعلم بشؤون دنياكم وبعد

ما سن لنا في غزو قنبر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم الاول الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصاً عن ارسطو وافلاطون ووجدان السنة في تقليدهما لبادئ الامر والثاني روح الوقت وهو أشأم الامرين زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين واصطدموا بعلمهم في قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فقال جماعة العقائد عليهم وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو أحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام عس شيئاً من مباني الدين واشتدوا في نقده وبائع شئخرون منهم في ترجمتهم حتى كذبوا لجهلهم السير الى ما وراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبتت لهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما زاه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجعل علوم نظرية شتى وجهاً لاجتماعها لواحد والذهاب بمقدما منه وسادته في ابعاد اقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فقن طلاب الملث من الاجبال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وقتكوا بما بقي من أثر العلم النظري السابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكها ولم يعد دين الناظرين في كتب السابقين إلا

تجاوز في الالفاظ وتناظر في الاساليب على أن ذلك في قلب كل من الكتب
اختارها الضعف وفضلها القصور ثم انتشرت الفوضى العقلية بين
المسلمين تحت حاية الجهالة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم
يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا
من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن مباحث الدين أعوانا فشدوا
بالعقول عن مواطنها وتحكروا في التضييل والتكفير وغلوا في ذلك حتى
قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا
لما تصف السننم الكذب هذا حلال وهذا حرام وهذا كفر وهذا
اسلام والدين من ورأى ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما ينظنون وما
يصفون ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من
أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عيم
هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ببيتك كيف أسس على قواعد من الكتاب
المبين وكيف عثت به في نهاية أمره أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن
قصده وبعده وابتعدوا عنه

والذي علينا اعتقاده أن الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد لادين
تفرق في القواعد العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما
وراء ذلك فترقات شياطين أو شهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل
بعضه قاض عليه في صوابه وخطئه

الغاية من هذا السمع اتيام يفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى
بصفاته الواجب شوبها للمع تنزيهه عما يشبهه اقصافه والتصديق
برسوله على وجهين الذين تطمئن به انفس اعتقاد على الدليل لاسترسال

مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب فقد أمر بالتظر واستعمال
العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن التفوذ إليه من دقائقه
تحصيل اليقين بما هدانا إليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال
الأمم في الأخذ بما عليه آبائهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه
لهدم معتقداتهم وانحما وجودهم الملى وحق ما قال فان التقليد كما يكون
في الحق يأتي في الباطل وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة
يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل
لذاته ويعترفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هي أما الواجب فهو
ما كان وجوده لذاته من حيث هي والممكن ما لا وجود له ولا عدمه من
ذاته وانما يوجد لوجوده وعدمه لعدم سبب وجوده وقد يعرض له
الوجوب والاستحالة لغيره وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز
فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون في الواقع ينطبق عليه العلم
والمستحيل ليس من هذا القبيل كما ترا في أحكامه وإنما المراد ما يمكن
الحكم به من أن في ضرورة يتخذه العقل ليتوصل به إلى الحكمة عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته
من حيث هي ولو طرأ الوجود عما به لسلب لازم الماهية من حيث هي

عنها وهو يؤتى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالسحبيل
لا يوجد فهو ليس بوجود قطعا بل لا يمكن للعقل أن يتصوره ماهية
كأنة كما أشرنا اليه فهو ليس بوجود حق ولا في الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الاسبب وأن لا ينعدم الاسبب
وذلك لانه لا واحد من الامرين لذاته فقسبتم ما الى ذاته على الشواء فان
ثبت له أحدهما بلا سبب لازم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح
وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد الاسبب
فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والاوّل
باطل والاّ لزم تقدّم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو باطل لمعنى الحاجة
وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤتى الى خلاف المفروض والثاني
كذلك لانه لا يتساوى في ثبوتها لوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه
أثر والثاني مؤثر ترجيح بلا مرجح وهو مما لا يستوعقه العقل على أن عليه
أحدهما ومعلومية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين
الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم
في مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذا الحادّث ما سبق وجوده بالعدم
فدكن كمن حدث

الممكن لا يحتاج في عدمه الى سبب وجودي لان العدم سلب والسلب
لا يحتاج الى إيجاد بلغة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير في عدم

ما كان سبباً في بقاءه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة لان
العدم لا يكون مصدراً للوجود فالوجود ان حدث فانهما يكون حدونه
بإيجاد ذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما يئان
ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الالسبب
الخارجي الوجودي فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من
حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود فحاله فيكون
في جميع أحواله محتاجاً الى مرجح الوجود عن العدم لافرق بين الابتداء
والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الایجاد ومعطى الوجود وهو الذى
يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموحدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى
ونحو ذلك من العبارات التى تختل بمبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق
السبب أحياناً على الشرط أو المبدأ الذى يهيئ الممكن لقبول الایجاد من
موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء ويستغنى عنه في
البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود
البناء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء
واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذنبه وأطوار اذاته
شرط لوجود البيت هل هي شئ خاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف
الممكن على شئ وبين استفادته الوجود من شئ فانه وقف قد يكون على
وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست
واهبة الوجود الثانية والاوجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد

الاذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود
يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستداما من وجود
الواهب لا يقوم الابهقلا يستقل بنفسه دونه في حال من الاحوال

الممكن موجود قطعاً

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كائنات
النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة
لاسيما الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثاني لان
الواجب الوجود من ذاته وما نال ذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا
يسبقه كما سيجي في أحكام الواجب فهي ممكنة فالممكن موجود قطعاً

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

بجمله الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه
الوجود بجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجب دلها فاما
أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشئ على نفسه وإما أن
يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشئ سببا لنفسه ولما سبقه
ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب
أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذي ليس ممكن هو
الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد
فيبقى الواجب فثبت أن الممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود

وأياها الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة
بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات
الممكنات وهو باطل لما سبق في أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات
الممكنة بمقتضى الوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب
بالضرورة

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديما أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا
والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم وكل
ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والالزم رجحان المرجوح
بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا في وجوده الى
موجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون
ما فرض واجبا واجبا وهو تناقض محال ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه
عدم والالزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشيء عن نفسه
وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا ان لو تركب لثقتهم وجود كل جزء من أجزائه
على وجود جلته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة
فيكون وجود جلته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان
وجوده لذاته ولاه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقفا على الحكم

بوجود أجزائه وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولأنه لا مرجح لأن
يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح
فتكون هي الواجبة دونه

ففي التركيب في الواجب شامل لما يسمى حقيقة عقلية أو خارجية فلا
يمكن للعقل أن يحاكي ذات الواجب بتركيبه فان الأجزاء العقلية لا بد لها
من منشأ تتزاع في الخارج فلوزن كبت الحقيقة العقلية لكأنت الحقيقة
مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب
الصدق لاحقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في أحد الامتدادات
الثلاث أي لا يكون له امتداد لأنه لو قبل القسمة لعادها إلى غير وجوده
الأول وصار إلى وجودات متعددة وهي وجودات الأجزاء الخاصة
من القسمة فيكون ذلك قبولا لعدم أوتر بأكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل بالظهور ثم
الثبات والاستقرار، وكما الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته
بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية
ما هو كمال تلك المرتبة في المعنى السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة
سواها وقد فرض لها ما تجلي للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل
مثال في أي مرتبة ما كان مقروفا بالنظام والكون على وجه ليس فيه

خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا
وان في النوع كل أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال
فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل
نظام كان ذلك عنوانا على أنها كمال المراتب وأغلاها وأرفعها
وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع
فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأغلاها فهو يستتبع من الصفات
الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوّره العقل كالأف في الوجود
من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن
يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصدرا للنظام وقصره في الأعمال على
وجه لا اضطراب فيه يعتمد على كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك
قائمة بالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها
هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة
وذلك أن الحياة مما يعتبر كمال الوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر
النظام من أسوس الحكمة وهي في أي سراتها مبدأ الظهور والاستقرار
في تلك رتبة فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الرجب لكل كمال
وجودي يمكن أن يتصف به رجب أن يثبت له فوجب لوجوده وحجتي وان
يا نبت حياته حياة الممكنات فهو كمال الوجود انما هو مبدأ العلم
والارادة ولولم يثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه
وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واجب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقد الحياة يعطيها
فالحياة كما أنه مصدرها

العلم

وعما يجب له صفة العلم ويرايد به ما به انكشاف شيء عن شيء من حيث تلك
الصفة أي مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية
التي تعد كالآفي الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك
وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال في الموجودات الممكنة ومن الممكنات
من هو عالم فلولا يمكن الواجب عالما لكان في الموجودات الممكنة ما هو
أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واجب العلم في عالم
الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن
الموجودات فلا يتصور في العالم ما عدا ما في منه فيكون محيطا بكل ما يمكن
علمه ولأنه قد رآه قل لما أشمل وهو انما يكون لوجوده كمال وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يغني بغناه ويقي ببقائه وعلم الواجب من لوازم
وجوده فلا يقتصر الى شيء ما وراء ذاته فهو أزلي أبدي غني عن الآلات
وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والالم يكن
علما

من أن تبرزت العلم لواجب ما نشأ عنه في نظام الممكنات من الاحكام

والا تقاين ووضع كل شئ في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقيائه وذلك ظاهر لجلي النظر عما يشاهد في الاعيان كبرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها لو تقدير حركاتها على قاعدة تكدر لها البقاء على الوضع الذي قدولها والزام كل كوكب بمدار لوخرج عنه لاخل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمته مدبره

اعتبر بما تراه في برسيمات النباتات والحيوانات من توقيتها وقواها وإلتئامها ما يحتاج اليه في قوام وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميسل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلئمته فقوى برزقه الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنبى بعناية واحدة ولكن تلك تفتحص من مواد ما يمدى المزاجاتاق وهذه تنارب ما يدور حولها المذاق وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منخ من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواها الى ما قدرت له فهو الذي يعلم حالة الحسین وهو نطفة أو علقنة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأه الحي مستقر في ٤ الى الأیدی والارجل والاعین والشام والآذار وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم ويرد ريقه من العوادي عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التي لا غنى عنها في التمرد البقاء الى الاجل المحدود للشخص أولادوع هو الذي يعلم حالة الجرودة من الكلاب مثلاً وأنها متى كبرت تلد أجراء

متعددة فيمنحها أطباء متكررة وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد
فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ
الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين
في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من
الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذي انما تفاضل العقول في فهم أسرارها والوقوف على
دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شيء الذي أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون
ينبوع هذا النظام وواضع تلك القواعد التي يقوم عليها وجود الالكوان
عظيمها وحقيقتها كلابل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال
ذرة في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم

الارادة

شأنه لا يحسب الوجود الارادة وهي صفة تخص من فعل العالم بأحد
وجزءه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب
وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت
بالضرورة أنه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو
على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه
تدخصت ودرت بآثار الوجوه الممكنة وتخصيصها كما كان على وفق العلم
بالضرورة ولما معنى الارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح الفاعل أن ينفذ ما قصده وأن

يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فان هذا المعنى من المموم
الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من نوابع النقص في العلم فتتغير
على حسب تغير الحكم وترتد الفاعل بين البواعث على الفعل والتترك

القدرة

وما يجب له القدرة وهي صفته بالايجاد والاعدام ولما كان الواجب
هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا
بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطته على
الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الاله ثبات الثلاث بسببه لزم بالضرورة ثبوت الاختيار ذلك لا معنى
له الا لإصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل
المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة
والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون
ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراع له توجه عليه التفتت فبأنه
تفرغ عن اللائمة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وانما نظام الكون
ومصالحه العظمى انما تقررت! بحكم أنه أزل وجودا واجب نبي هو
أكل الوجودات وأرفعها فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكون
وإتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ
أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطابقة فصدر وبصدر على

هذا النمط الرفيع (أفسبتم أنما خلقناكم عبنا وأنكم اليئلا ترجعون)
وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تستر عن العتب
ويستحيل أن تغلوم من الحكم وان خفي شئ من حكمها عن أظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية
فقد أثبتناها فيما تقدم بنى التركيب في ذاته خارجا وعقلا وأما الوحدة
في الصفة أى أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة
تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوى واجب الوجود في
مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات وأما الوحدة
في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد
الممكنات فهي ثابتة لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين
تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة واللام يحصل معنى التعدد وكلما
اختلفت التعيينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لأن
الصفة إنما تعين وتنال بتحقيقها الخاص بها بتعين ما ثبت له بالبداهة
فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها
علم وارادة يباينان علم الاخرى واراقتها ويكون لكل واحدة علم وارادة
بلا ثمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هنا اختلف ذاتي لان علم الواجب واراذه لازمان لذاته من ذاته لا امر
خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيما كما سبق وقد قلنا أن فعل
الواجب انما يصدر عنه على سبب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كل

صادر ا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت
 أفعالهم بخلاف علومهم و اراداتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل
 واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على
 الایجاد فى عامة الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه
 و ارادته ولا مرجع لتفاذا حدى القدرتين دون الاخرى فتضارب أفعالهم
 حسب التضارب فى علومهم و اراداتهم فيفسد نظام الـكون بل يستحيل
 أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لا بد أن
 يتعلق به الایجاد على حسب العلوم و الارادات المختلفة فيلزم أن يكون
 للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فهما آلهة الا الله
 لفسدنا لكن الفساد منتهى بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته
 لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله

الصفات اسمية التى يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها الواجب الوجود هى ما
 أرشدنا اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع
 المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان
 من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاز كره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على
 ما يليق الواجب الوجود ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد
 بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به
 فى تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق

القرآن بأنه كلام الله فصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لا بد أن يكون
 شأننا من شؤنه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك
 الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ولا في أنه خلق من خلقه وخصص
 بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد إبلاغه لخلقه ولأنه
 صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه
 من الوجود سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف
 ذلك مصادرة للبداهة وتجزؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه
 فان الآيات التي يقرؤها القارئ تحدث وتنفى بالبداهة كلما تليت
 والسائل بقدم القرآن المقرؤه أشنع حالا وأصل اعتقاد من كل مله جاء
 القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها وليس في القول بأن الله
 أوجد القرآن بدون دخيل لكسب بشر في وجوده ما عس شرف نسبتبه
 بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبي
 وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وصالاة

أما ما نقله ابن عباس فلكم الخلاف الذي نرى في الامة وأحدث فيها الأحداث
 خصوصاً في أوائل القرن الثالث من الهجرة وإليه يرجع بعض الأئمة أن ينطق
 بأن القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحريج والمبالغة في التأديب من
 بعضهم والافيجيل مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن
 المقرؤه ديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكفيه بصوته

وعمدته بالمثل صفة البصر وهي ما به تنكشف المبصرات وصفة
 السمع وهي ما به تنكشف السموعات فهو السميع البصير لكن علينا
 أن نعتقد أن هذا المكشوف ليس بآله ولا جارحة ولا حذقة ولا باصرة

كلام في الصفات اجمالاً

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله يجملة
وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله
ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا

أنا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي اليه كماله انما هو الوصول الى
معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا
كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناسمها وتحصيل
كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها أما
الوصول الى كنه حقيقة ما فما لا تبلغه قوته لاننا كثرنا لمركبات انما هو
باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى
اكتناعه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ
أنظر الاشياء وأجلها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة
فصلوا في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو ولا أن يكتنه
معنى الاضاء نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى
هذا القياس

ثم إن الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناشي من الكائنات وانما
حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولتدفعه ان كان سليما انما هي
تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وادراك القواعد التي قامت
عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناء إضاعة للوقت وصرف للقوة الى
غير ما سبقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر هل هي قبل الجسم أو بعده هل هي فيه أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما يبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حتى له شعور وإرادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها بديته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما ينظر من الافعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ماذا يكون انه هاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدی

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيوية وبضئ للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والى اتصافه بما زلزاله لم تعد رت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام وتخالف الا تطار في الـكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن ينظر الحق ويعلم على الباطل يتعاون الافكار أو صولة القوى منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب لاكتناه من جهة وهو ممنوع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين والاستحالة التركيب في ذاته وتنازل انشاءه لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكة عبث لأنه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لأنه يؤدي الى الخبط في الآخرة لأنه لا يحد بل لا يجوز تحديده وحصره لما لا يصح حصره

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتي في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهي واستحالة الوصول إلى الاكسائه شاملان لها في كسنا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها أما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نخش فيه

فالذي يوجب علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أنزى أبدى في عالم مريد قادر متفرد في وجوب وجوده وفي كمال صفاته وفي صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يبيع ذلك من الصفات التي جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما شتمل عليه العلم من معاني الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤون التي اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فما لا يجوز الخوض فيه إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه والاستدلال على شيء منه بالألفاظ أو إرادة ضعف في العقل وتغير بالشرع لأن استعمال اللغة لا ينحصر في الحقيقة ولئن انحصرت فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنها الحقيقية وانما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يمتد فيها فريق إلى مقتنع فما علينا إلا الوقوف عندما تبلغه عقولنا وأن نسأل الله أن يغفر لي آمين به وعا جاء به رسوله بمن تقدمنا

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علم وإرادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما صدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته بجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما ثبت له تعالى بالإمكان الخاص فلا يظنون بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئاً من أفعاله بواجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلاً فإن ذلك هو التناقض البدهي الاستحالة كما سبق الإشارة إليه

بقيت علينا جولة نظري في تلك المقالات الحق التي اختبط فيها القوم اختباط أخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعة على ما بيده فاستخبر بينهم القتال ولازوا فيما لا بدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملوا ولوافقهم الغاية أخواناً بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله وتحقيق وعيبيه فيمن نعتى حدوده من عبده وما تلا ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض فقد بالغ قوم في الإيجاب حتى ظن الناس في مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد القيام بما عليه من

الحقوق وتأديتها لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علواً كبيراً وغلا
آخرون في نفي التعليل عن أفعاله حتى خيل للمعنى في مقالاتهم أنهم سم
لا يرضونه إلا قلباً يبرم اليوم ما تقضيه بالأمس ويفعل غداً ما أخبره بقبضه
اليوم أو غافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحانه ربك رب العزة عما
يصفون وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين جبروت الله وطهارة
دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخالو من حكمة وصرح الغزالي
والقصورون جميعاً بأنه تعالى منزّه عن العبث في أفعاله والكذب في أقواله
ثم بعد هذا أخذوا يتناكبون بالالفاظ ويتمارون في الاوضاع ولا يدري الى
أى غاية يقصدون فلناخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة واحدة
ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً خاصاً كان
أو عاماً أو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً
ولعباً ومن يزعم الحكمة معنى لا يرجع الى هذا اكتناه الى أوضاع اللغة
وبداهة العقل لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يمثل عند العقل
بشئ إلا إذا كان ما يتبع العمل مراد الفاعل بالفعل والالعد النائم
حكيماً في الوقت زلت عنه حركة في فومه قتل عقر با كاد يلسع صفداً و
دفع صبياعن حفرة كاد يسقط فيها بل لومهم بالحكمة كبير من الجهل والاعت
إذا استتبعت حركتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه
من القواعد الصحيحة المسئلة عند جميع العقلاء «أن أفعال العاقل تصان
عن العبث» ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته

ويريدون من صونها عن العيب أنها لا تصدر إلا لامر يترتب عليها يكون غاية لها وان كان هذا في العاقل الحادث فإنا نذكر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم هذه كلها ملمات لا ينازع فيها أحد صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم فقيه ما قامت به السموات والأرض وما بينهما وحفظ به نظام الوجود بلسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به إلى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإتياء كل محتاج ماله إليه الحاجة إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا لا يمكن القول بالثاني والالكان قولاً بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبه أثر من آثاره عن إرادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة انلوصح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فمرجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته وهو بما لا تراعى فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب محقق ما وعد

وأوعده فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقوه وأصدق القائلين وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمتها والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما الا عيين لو أردنا أن نتخذ لهموا لا نتخذنا من دنا إن كفا علين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لا نتخذنا من دنا أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص وهو محال وإن في قوله ان كفا علين نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقي أن اتناظرين في هذه المتعاقبات ينقسمون الى قسمين فتمهم من يطلب علمها لانه شهو والعقل وفيه لذته فهذا القسم يسمى المعاني بأسمائها ولا يبالي جواز الشرع اطلاقها في جانب الله أم لم يجوز فيسمى الحكمة غاية وغرضها علم غائية ورعاية للصحة وليس من رأيه أن يجعل لقلبه عنايته عنه اطلاقاً واسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللغاة

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد يشئون لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تزئيمه حتى بعضه اللسان عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه فيعتبر أن تلك الالفاظ مفردة ما ومركباً فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام وبعبارة أخرى

يوهم القهر والتأثر بالآغيار ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة
الفكر وهما من لوازم التقص في العلم والغاية والعلة الغائية والغرض
توهم حركة في نفس الفاعل من قبل البدء في العمل إلى نهايته وفيها ما في
سواها ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف
في المقال سببا في التفرقة بين المؤمنين وتعاريفهم في الجدل حتى ينتهي
بهم التفرق إلى ما صاروا إليه من سوء الحال

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج في ذلك إلى
دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية
يزن نتائجها بعقله ويقتدرها بإرادته ثم يصدرها بقدرته تافيه ويعتذر إنكار
شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده في مجافاته لبداية العقل
كما يشهد بذلك في نفسه يشهد أيضا في غيره كقائه متى كانوا مثله في
سلسلة التمر والحواس ومع ذلك فقد يرد إرضاء خليل فيغضبه وقد
يطلب كسب رزق فيفوته ويرجع إلى منجاة فسقط في مهلكة فيعود
باللائمة على نفسه أن كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ويتخذ من خيئته
أول مرة مرشدا له في الأخرى فيما واد العمل من طريق أقوم وبوسائل
أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي إن كان سبب
الافتقار في أنسب منازعة منافية له في مطالبه لوجوده من نفسه أنه
الفاعل في حرمة نفسه يرى لما ضلته وتارة يتجه إلى أمر أسوأ من ذلك إن
لم يكن لتقصيره أو لما ضلته غير دخل فيمات في من مصير غير كأن هب ريح

فأغرق بضاعته أو نزل صاعقه فأحرق ماشيته أو علق أمله بعين ثبات
أو بذى منصب فعزل يتجه من ذلك إلى أن في الكون قوة أسمى من أن
تحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته فإن كان قد
هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسرها مستندة إلى
واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وإرادته خضع وخضع ورد
الامر إليه فيماليق ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقي فالؤمن كما يشهد
بالدليل وبالبيان أن قدرته مكثون الكائنات أسمى من قوى الممكنات
يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية
فإنه تصرف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله وقد
عزف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به
عليه إلى ما خلق لأجله

على هذا قامت الشرائع وبه استقاست التكاليف ومن أنكر شيئا منه
فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه وهو عقله الذي شرّفه الله بالخطاب
في أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم
الله وإرادته وبين ما تشهد به البداية من عمل المختار فيما وقع عليه
الاختيار فهو من طب سر القدر الذي نهى ما عن الخوض فيه واشتغال
بما لا تكاد تصل العقول إليه وتدخل فيه رائاتون من كل ملّة
خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يرأوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث
ابتدؤا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتوا بينهم القائل بسلطة العبد على
جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر

وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو
 للتكاليف وإبطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الايمان
 ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدي الى الاشرار بالله وهو الظلم
 العظيم دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشرار على ما جاء به الكتاب والسنة
 فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أترافوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة
 وأن لشيء من الاشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد
 من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار
 في الحرب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التي
 هدانا الله اليها والاستعانة على السعادة الآخوية والذخيرة بغير الطرق
 والسبل التي شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون
 ومن ماثلهم فحلت الشريعة الاسلامية بمجموعه وورداً الامر فيما فوق القدرة
 البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين
 هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية الاول أن العبد يكسب بارادته
 وقدرته ما سوسيله لتساعده وإثاني أن قدرة الله هي مرجع لجميع
 الكائنات وأن سائر ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريد وأن لا شيء
 سوى الله يمكن له أن يعذ العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة
 لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى إتمام
 عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد المعون
 منه وحده بمسند أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر
 وإجادة العمل وإسماع القلب ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك وهذا
 الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عيبت له

الام وعقل عليه من متأخري أهل النظر امام الحرمين الجويني رحمه الله
وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحداية الله لا يقتضي من المكلف الاعتقاد
أن الله صرفه في قواه فهو كاسب لا يمانه ولما كلفه الله به من بقية الامل
واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى في انعام
مراد العبد بالاله الموانع أو تهينة الاسباب المنعمة مما لا يعلم ولا يدخل
تحت ارادته

أما التطلع الى ما هو أغص من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما
هو من شره العقول في طلب رفع الاستعار عن الاسرار ولا أنكر أن قوما
قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما طمأننت به
نفوسهم وتفتحت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور
يتنفعاته في قلب من شاء ويخص به أهل الولاء والصفاء وكثر ما ضل
قوم وأضلوا وكان لمقاتلتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الامة اليوم

لو شئت لقربت البعيدة قلت إن من بالغ الحكم في السكون أن تتنوع
الانواع على ما هي عليه في العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى
تليزم خصاصه وكذا الحال في غير الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع
والاشخاص وجودها على ما هي عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له
توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن تميزته حتى يكون غير سائر
الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره فوجوده
الموهوب مستتب لمميزاته هذه ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حروا
آخر والفرص أنه الانسان فهبة الوجود له لاشي فيها من القهر وعلى العمل

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبأن عمل كذا يصدر
في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملاً آخر شر يعاقب عليه عقاب
الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصله عن الكسب والاختيار فلا
شيء في العلم بسالب للتخير في الكسب وكون ما في العلم يقع لامحالة انما
بما من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال شخص من أهل العناد يعلم علم
اليقين أن عصىاته لا مبرر باختياره يحل به عقوبته لامحالة لكنه مع ذلك
يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع
أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام فأنكشاف الواقع للعالم لا يصح في
نظر العقل ملزماً ولا مانعاً وانما يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب
الالفاظ ولو شئت لرئت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف
النظر الصحيح ولم تقصد فطرته بالمحاكاة اللفظية لكن يمنعني عن
الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن
ادراك الامر في ذاته مهما بالغ التعبير في الايضاح عنه والبيان قلوب
الجمهور بين الخاصة بعرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل
عليه ولا يريدونه الاموافق لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا
نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك الى بحد العقل برمته فأكثروا
يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فان صاح بهم صاحهم
أعماق سرورهم وبل للخطاب ذلك قلب لسنة الله في ذاته وتحريف لهدية
في سرعه عزمهم هزم من الخزع ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا
هو ما أوتيت وما أفتنا الا على معروفي ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها في مخيلاتنا وذلك يهدي إلى احتياج الدليل نجد في أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها فان اختلفت مشارب الرجال في فهم جمال النساء أو مشارب النساء في معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد في جمال ألوان الازهار وتنضيد أوراق النباتات والاشجار خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ولا في قبح الصورة الممثل بها تهشيم بعض أجزائها أو قطع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب ومن القبيح استمئزاز أو جزع وكما يقع هذا التمييز في البصرات يقع في غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بني آدم بإحدى تلك الحواس

نيس هذا سضع محسنيدها هو الجمال وما هو القبح في الاشياء وان كان لا يتخالفنا أحد في أن من خواص الانسان من بعض احيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران في أطواره إلى الحد الذي نراه عليه الآن وان اختلفت الازواق ففي الاشياء جمال وقبح

هذا في المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة في الوضوح ما يلزم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجلال فيها فالكمال في المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية لجمال شعريته أنفاس عارفيه وتبهره بصائر لاطفيه والنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان عن أثر الاحساس بالقبح في المحسوسات وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل والسقوط في الهمة وضعف العزيمة ويكنى أن أبواب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في إخفائها ويفترون أحيانا بأنهم متصفون باضدادها

وقد يجعل القبح بجمال أثره ويقبح الجليل بقبح ما يقترن به فالزقبح مستبشع والملوك الدميم المشوه الخلقة فيبغضونه النظر لكن أثر الرقي معالجة المرض وعدل الدميم في رعيته أو إحسانه اليك في خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقى على صاحب آفة من مآئه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل ومثل ذلك يقال في قبح الخلوذ أو أضرر واشمئزاز النفس من الجليل اذا ظلم وأصر

هل يمكن لعقل أن لا يقول في الافعال الاختيارية كما قال في الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها أو تفعّل نفوسنا بما يلزم منها كما تفعل بما يرد عليها من صور الكائنات كلا بل هي قسم من الموجودات حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداية

فن الافعال الاختيارية ما هو مجب في نفسه تجدد النفس منه ما تجد من
 مجال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين في
 الألاعيب المعروفة اليوم «بالجناسيك» وكأداة النغمات على القوانين
 الموسيقية من العارفين بها ومنها ما هو قبيح في نفسه يحسن منه ما يحسن
 من رؤية الخلق المشوه كخطب ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة
 النائحات وتقع المذعورين

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو
 دفع الألم فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الإنسان والثاني
 كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألماً
 مما لا يحصى عنه وفي هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلد والقبيح
 بمعنى المؤلم

وقد لا يمتنع تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين
 عن تمييز الحيوانات المرتقية في سلسلة الوجود اللهم الا في قوة الوجدان
 وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع وما يقبح
 بما يجترأ به من الضرر ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبح
 بهما المعنى اذا حدثن كل وجهاته وقلبا تارة في نفسه حيوان آخر
 اللهم الا من أحط جهاته وهو خاصة العقول ومرا الحكمة الالهية في هبة
 الفكر

فن اللذائذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالافراط في تناول الطعام والشراب
 والانتقطاع الى سماع الاغانى والجري في أعقاب الشهوات فان ذلك

مفسدة للصحة مضیعة للعقل متلفة للآل مدعاة للعجز والذل وانما قبح
 اللذی فی هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما یجز الی معاناة من الآلام
 التي قد لا تنتهی الا بالموت علی أسوأ حالاته ولضعف النسبة بین متاع
 اللذة ومقاساة شدائد الآلم ومن المؤلم ما یحسن کجسم مشاق التعب فی
 الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس علی حاجاتهم فی أوقات الضعف
 ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حیثما من الزمن
 لیتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بمقتدر لهما من اللذات الذی علی
 وجه ثابت لا یحاطه اضطراب أو علی غلط یخفف من رزایا الحیاة إن عدت
 الحیاة مناراً لها

ومن المؤلم الذی عدما للعقل البشري حسنامقاوعة الانسان عدوه سواء
 كان من نوعه أو من غیره للدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ومنهم بنو آیه أو
 قبیلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه فی الاحساس ومخاطرة حق
 بحیاته فی سبیل ذلك كأنه یرى فی بذل هذه الحیاة أماناً علی حیاة أخرى تشعر
 بها نفسه وارلی یحدثها عقله ومنه معاناة التعب فی كشف ما عی عن
 علمه من حقائق الکیون كأنه لا یرى المشقة فی ذلك شیئاً بالقیاس الی
 ما یحصل من لذة الاطمئنان علی الحق بقدر ماله من الاستطاعة
 وعدم اللذی المستقبح مذل الی ما کسبه الغیر بسعیه واستشفاء ألم
 الخلد بانطلاق نفس المحقود علیه أو ماله لم فی ذلك من جلب المخافة العالمة
 حتی علی ذات المستدی ویمکنک من نفسك استحضار ما یتبع الوفاء
 بالعهود والعقود والغد رفیها

کل هذا عسره للعقل البشري ورفق نیه بین الضار والنافع وسمى الاول

فعل الشر والسائق على الخير وهذا التفريق هو مثبت التمييز بين الفضيلة
والرذيلة وقد حددتهما النظر الفكري على تفاوت في الاجال والتفصيل
للتفاوت في درجات عقول الناظرين وناط بهم ماسعادة الانسان وشقاءه
في هذه الحياة كإربط بهم ما نظام العمران البشري وفساده وعزة الام
وذلتها وضعفها وقوتها وان كان المحددون لذلك والاخذون فيه بحظ
من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه مل ولا فيلسوف فلاعمال
الاختيارية حسن وقبح في نفسها أو باعتبار أثرها في الخاصة أو في العامة
والحسن أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعاني السابقة بدون
توقف على سمع والشاهد على ذلك ما تراه في بعض أصناف الحيوان وما
تشهده في أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل الينام
تاريخ الانسان يداعرف عنه في جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهد بعض الناظرين في أحوال النمل قال
كانت جماعة من النمل تستغل في بيت لها فجاءت غلة كأمها القائمة بمراقبة
العمل فرأت المشغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب
فأسرت بهدমে فهدهم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف على
أرفع مما كان وذلك من أنماض السقف القديم وهناه التمييز بين الضرر
والنافع فمن زعم أن لاحسن ولا قبح في النمل على الإطلاق فقد سلب
نفسه العقل بل عدها أشد جفما من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكيالية تعرف بالعقل فإذا وصل
مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغ بهذا

رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر في ذلك وفي
أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل في الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم
آخرين ثم انتقل من هذا الخطأ أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية
بعد الموت يستدعي سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون
بمعرفة الله وبالفضائل وانها إنما تسقط في الشقاء بالجهل بالله وبالتركاب
الرزائل وبني على ذلك أن من الاعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل
السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده بابقاها في الشقاء فأى مانع عقلي أو
شرعي يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان
جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون
عنها مخطورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو ببقية البشر الى
الاعتقاد بمثل ما يعتقد والى أن يأخذ من الاعمال بمثل ما أخذه حيث
لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حال العامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة
وأنه لا صير من سائر السعادات في الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها
فما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضل
القائل به في رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هي حاجات فيل أو أسد
مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة لاهتدى
الى المنافع وتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته
وتخص كل من شئلا آخر ونجا بقية انميوات من غائلة الجميع
لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون له حاجته حد ولا تختص معيشته

يجتمع من الاجواء ولا يوضع من الاوضاع وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله في سد عوزه وتوفير لذاته في أى إقليم وعلى أى حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك في أطوارها وآثارها باختلاف أوضاعه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الاطفاق

وهب الله الانسان أوسلطا عليه ثلاث قوى لم يسلوه فيها حيوان الذكرة والمخيلة والمفكرة فالذكر تثير من صور الماضى ماستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبئ اليه الاشياء أو الاضداد الحاضرة فتقيد كراشى بشبهه وقيد كرهه بضده كماله وبيده والخيال يجسم من المذكر وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثال لذاته أو ألم فى المستقبل يحاكي ما ذهب به الماضى ويهمل لنفسه فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر يتطرمثلا فى حال مسرف تفرد له فى غير نافع وضائق يده عما يقبم معيشته فيذكر لما للحاجة مضت ثم يتخيل اسل ومنافعه وما تتمتع به النفس من المذقة سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الالم الذى يحده مشهد الفاقة فى غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضروره ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة

اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم في استخدام ما وهب به الله من القوى في نفسه وما منح به من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى ما لا مثلاً في يد غيره فيبتدئ كره لذة ماضية أصابها عثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها في المستقبل ولا يزال يعظم في تلك السنة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طامس وجوه الكسب وانما يمدد إلى استعمال قوته أو حيلته في سلب المال من يده مالكة لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالامن الذي أقاضه الله بين عبادِه وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر في أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما ينافي المثاليين فلقوة الذاكرة وضعفها وحنة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر في التمييز بين النافع والضار في أشخاص الأعمال واللامرحة والأجواء وما يختلف بالشخص من أهل وعشيرة وسعاسير من مدخل عظيم في التحيل والفكر بل وفي الذكر

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلاهم وأهل النظر والحجج والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق في معرفة ذلك ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلماً في أصله وأن القبيح ما أجبر إلى فساد في استطاعة الشخص بالشخص أو السائل له وبين شخص به وإن عجزت عنه الحاجة ولكنهم يختلفون في النظر إلى

كل عمل بعينه اختلافتهم في أمر جنتهم ومناشئهم وجميع ما يكتشف
 بهم فلذلك ضربوا الى الشرف في كل وجه وكل يقطن أنه انما يطلب نافعاً
 ويتقي ضاراً فالعقل البشري وحده ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه
 ما فيه سعادته في هذه الحياة اللهم الا في قليل من لم يعرفهم الزمن فان
 كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الاجيال
 وقد سبقت الاشارة اليهم في ماضي

ولم يستعقل الناس سواء في معرفة الله تعالى ولا في معرفة حياة بعد
 هذه الحياة فهم وان اتفقوا في الخسوع لقوة أسمى من قواهم وشعر
 معظمهم بيوم بعدهم هذا اليوم ولكن أفسدت الوثية عقولهم وانحرفت
 بها عن مسلك السعادة فليس في سعة العقل الانساني في الافراد كافة أن
 يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي
 أن يفهمه ولا أن يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة
 وانما قد يسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم
 ينل شرف الاقتراف بهدي نبوي ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه
 وهو لا يرغب بياصون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق في الحقيقة
 أن ينظر منه الى الجلال الالهى

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل اليه وحده
 وهو تفصيل اللذائذ والالام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو به وجه ما
 ومن الاعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لافي هذه الحياة
 ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى في أعداد الركعات وبعض الاعمال
 في الحج في الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات في الديانة الموسوية

وضروب التوسل والزهادة في الميانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل
البشري أن يستقل بعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادة
لهذا كله كان العقل الانساني محتاجا في قيادة القوى الادراكية والبدنية
الى ما هو خيره في الحياتين الى معين يستعين به في تحديد احكام الاعمال
وتعيين الوجه في الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغي أن يعرف
من أحوال الآخرة وبالجملة في وسائل السعادة في الدنيا والآخرة ولا يكون
لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بني جنسه ليفهم منه أو
عنه ما يقول وحتى يكون ممثلا على سائر الافراد بأمر فائق على ما عرف في
العادة وما عرف في سنة الخليفة ويكون بذلك مبرهن على أنه يتكلم عن
الله الذي يعلم مصالح العباد على ما هي عليه ويعلم صفاته الكالية وما ينبغي
أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعدها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه
يتكلم عن العليم الخبير معين العقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك
ما ضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبي

النبوة تحدد ما ينبغي أن يلحظ في جانب واجب الوجود من الصفات
وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن
يفضلوا به غيرهم في مقامات عرفانهم لكنهم لا تحتم الاما فيه الكفاية
للعمامة فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله ووجود آياته
وبالصفات التي أثبتناها على الوجه الذي بيناه وأرشدت الى طرق
الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن
المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشيء شأ واجب الشرع في ذلك وقبحه
مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل

عقل بشري بذلك لم يكن على الطريق المطالب من الجزم واليقين والاقناع
الذي هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع
يستحق المثوبة المعينة فيه وضدته يستحق العقوبة التي نص عليها كانت
طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك لا ينافي أن معرفة الله
على هذه الصفة حسنة في نفسها وانما جاء الشرع مينا للواقع فهو ليس
محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على
لسان يوسف أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار يشير بذلك
إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهه قلوبهم إلى
أعظم سلطان يقضونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب
لموجه قلبه إليه وفي ذلك فساد نظامهم كالأبخن أما اعتقاد جميعهم
بإله واحد فهو توحيد المنازع نفوسهم إلى سلطان واحد تخضع الجميع
لحكمه وفي ذلك نظام أخوتهم وهي قاعدة سعادتهم وإليه ألهم فيما
أعتقدون طال الزمان فكما جاء الشرع مطالب بالاعتقاد بآلهة بالوجه
الحسن فيه

النسوة تحدد أنواع الأعمال التي تناط بها سعادة الإنسان في الدارين
وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التي حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك
وجوه الحسن أو النقص فيما أمر به أو نهى عنه فوجوب عمل من المأمورية
أو الندب إليه وحظر عمل أو كراهته من المنهي عنه على الوجه الذي حددته
الشريعة وعلى أنه مناب عليه بأجر كذا ومجازي عليه بعقوبة كذا
لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافي أيضا أن
يكون المأمور به حسنة في ذاته بمعنى أنه مما يؤدي إلى منفعة دينية أو أخوية

باعتبار أثره في أحوال المعيشة أو في صحة البدن أو في حفظ النفس
أو المال أو العرض أو في زيادة تعلق القلب بالله بحمل شأنه كما هو مفصل
في الأحكام الشرعية وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن دركه حسنه ومن
التهيات ما لا يعرف وجهه فبحه وهذا النوع لا حسن له إلا الأمر ولا قبح
إلا النهي والله أعلم

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعنة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن
الله خالق الإنسان وموفيه ما لا غنى له عنه كما وفي غيره من الكائنات سداد
حاجاتهم وبقاء وجودها على القدر الذي حددها في رتبة نوعها من الوجود
والكلام في هذا البحث من وجهين الأول وهو أيسرهما على المتكلم
وجه أن الاعتقاد ببعنة الرسل ركن من أركان الإيمان فيجب على كل مؤمن
ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بنوابه ومنذرين
بعقابه تماموا تبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه
القاهر على عباده وتنصيل لأحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم
بها وفي مثالب فعال وخلائق بنهاهم عنها وأن يعتقد بوجوب تصديقهم
في أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم والالتزام
بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه
كتابا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام
التي علم الخبير لعباده في الوقوف عندها وأن هذه الكتب التي أنزلت عليهم
حق وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول

ولا الاستطاعة البشرية وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة
الدالة على صدق النبي في دعواه فحقى الرسل النبوة واستدل عليها
بالمعجزة وجب التصديق برسالتها

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو قدرتهم وصحة عقولهم
وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه وعصمتهم
من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تبوعنه الأبصار
وتفر منه الأدواق السليمة وأنهم منزّهون عما يصادش من هذه الصفات
المتقدمة وأن أرواحهم محدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس
إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر
يعتريهم ما يعتري سائر أفرادها ككونهم يشربون وينامون ويسهون
وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام وعرضون وتعسّد إليهم أيدي
الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف
في الإيجاد مما يقيم دليل على استحالة بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال
المرض يمنع عن الأكل مدة لولم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود
الغذاء التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الالتلاف فان قيل إن ذلك لا بد
أن يكون تابعا لأمور أخرى طبيعية قلنا إن واضح أن الأمور هو موجود
الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواحيب خاصة بخوارق العادات
غاية ما في الأمر أن لا نعرفها ولكن نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل
من عنده على أتباعه الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار بهل علينا

العلم بأنه لا يمنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعا لأي سبب إذا سبق في علمه أنه محدث كذلك

المعجزة لا بد أن تكون مقرونة بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوته من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له في تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فحق ظهرت المعجزة وهي مما لا يقدر عليه البشر وفان ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقاً لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قديقاً فإنه الانكار مكابرة

وأما الحروا أمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهي لا تعاون عن متناول القوى الممكنة فلا يتارب المعجزة في شيء

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلا أنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاعلت أرواحهم لسلطان نفوس آخر أو مس عقولهم شيء من الضعف لما كانوا أهلاً لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوجبه والكشف لهم عن أسرار علمه ولولم تسلم أيمانهم عن المنقرات لكان انزعاج النفس لمراهم حجة للنكر في أفكار دعواهم ولو كذبوا أو خافوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لأحرشدين فتدعب الحكمة من بعثتهم والامر كذلك لو أدركهم السهو أو التسيان فيما عهد إليهم بليغته من التماثل والاحكام

أما وقسوع الخطا منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل في التشريع فحوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تأييد النخل ثم أباحه لظهور أثره في الأعمار فأنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول للمعارفهم وتجاربهم ولا يحظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محبة وما حكاها الله من قصة آدم وعصيان به بالاكل من الشجرة فما خفي فيه سر النهي عن الاكل والمواخذة عليه وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض بنبى آدم كان النهي والاكل رمزا الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانساني في الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو اصابه دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك في الفصل السابق ما هم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل والكلام في هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معتزل الافهام ورمزه الاقدام ومن دهم الكثير من الافكار والاهام ولستنا بسدد الاتيان بما قال الاولون ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون وليكننا نزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب اليه من أقرب الطرق من غير تظر الى مآمال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم الاشارة من طرف خفي أو لما لا يستغنى عنه القول الجلي

والكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان **في الاول** وقد سبق الاشارة اليه يتدنى من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية سواء كانت تلك الاعمال قلبية **كما** الاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين ملعين وفلاسفة الاقليلا لا يقيم لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المتهوم هو ضرب من البطون والطفاء وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه فمن فائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجزئها عن المادة حافظة لما فيه من نيتها أو ما به شقوتها ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه الاجسام المادية وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعتد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبت في جميع الانفس عالمها وجاهلها وحشها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن ينفصله عقلية أو نزعة وهمية وانما هو الالهامات التي اختص

به هذا النوع فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقاءه في هذه
 الحياة الدنيا وإن شذأ فرد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بأكافين
 للارشاد في عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل أن يعوقن باعتقاد ولا للفكر أن
 يصل الى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم الا في اختراع الخيال وانهم
 شاكون حتى في أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء في صحة الالهام
 العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأساس
 البقاء الى الأجل المحدود كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس
 أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان في الوجود بل الانسان
 ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا في طور
 آخر وان لم يدركه كنهه ذلك الالهام يكاد يراحم البديهة في الجلاء فيشعر كل
 نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير
 محصورة شبة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهياة للدرجات
 من الكمال لا تتحدد أطراف المراتب والغايات معرضة لا لامن
 الشهوات وزعمات الالهة ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة
 الاجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عدد ولا تنتهي
 عند حد أيام يستلقتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود لا أنواع
 انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة في البقاء ولم يعهد في قصرته التبعث
 والكيل الجزاف فما كان استعداد له لقبول ما لا يتناهى من معلومات
 وآلام ولذائذ وكالات لا يصح أن يكون بقاءه قاصرا على أيام أو سنين
 معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدى وما عسى أن تكون

عليه منى وصلت اليه وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب
وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا في تقويم هذه المعيشة
القصيرة الامد لم يكفنا في الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمنا الحاجة
الى التعليم والارشاد وقضاء الازمنة والاعصار في تقويم الاقطار وتعديل
الافكار واصلاح الوجدان وتثقيف الازدهان ولازال الى الآن
من هم هذه الحياة الدنيا في اضطراب لا ندري متى نخلص منه وفي شوق
الى طمأنينة لا نعلم متى تنتهى اليها

هنا شأنا في فهم عالم الشهادة فإذا تأمل من عقولنا وأفكارنا في العلم بما
في عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نتهدى بها الى الغائب
وهل في طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدره في حياة يشعر بها
وبأن لا مندوحة عن القسوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ما ينقذ الى
تفصيل ما أعدته فيها والشؤون التي لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو
فيه أو الى معرفة يسد من يكون تصرف تلك الشؤون هل في أساليب
النظر ما أنصذبنا الى اليقين بمسأطها من الاعتقادات والاعمال وذلك
الكون مجهول لديك وتلك الحياة في غاية الغموض بالنسبة اليك كلا
فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة في نظر العقل ومرامى المشاعر
ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر في المعلومات الحاضرة لا يوصل الى
اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذي أقام أمر الانسان على قاعلة الارشاد
والتعليم الذي خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام التفاهم
والكتاب لتراسل أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعدها

بعض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته
يعزهم بالفطر السليمة و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه
للاستشراق بأنوار علمه والامانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم
انكشافه لهم لقاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون
على الغيب باذنه ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ويكونون في
مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد وبداية الغائب
فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وقد الآخرة في لباس من
ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفي على
العقول من شؤون حضرة الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر
أن يكون له مدخل في سعادتهم الاخرية وأن يبينوا للناس من أحوال
الآخرة ما لا بد لهم من علمه معبرين عنه بما تحمله طاقة عقولهم ولا يبعد
عن تناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم
في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ما هو مناط سعادتهم
وشقايتهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه
بأعماق ضمائرهم في إيجاله ويدخل في ذلك جميع الاحكام المتعلقة
بكليات الاعمال ظاهرة وباطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من
الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذات
رسالهم لدنائه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدع في كل كائن صنعه وجاد على
كل حي بما إليه حاجته ولم يحرم من رحمة حقير أو لاجل لامن خلقه
يكون من رآفته بالنوع الذي أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم

مقام المواهب التي اختص بها غيره أن يتقدم من حيرته ويخلصه من
التقيط في أهم حياته والضلال في أفضل حاله

يقول قائل ولم لم يودع في القرائن ما يحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها
الانقياد الى العمل وسأول الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الآخرة وما
هذا النحوم بمجائب الرحمة في الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن
سطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانساني ذلك النوع
على ما به وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك
من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده وأن لا يكون كل
فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد
البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك
النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنمل والبل أو ملكا من الملائكة ليس
من سكان هذه الارض

المسلك الثاني في بيان الحاجة الى الرسالة يأخذ من طبيعة الانسان
نفسه أرتب الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من
جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أو الى رؤس الجبال ويستأنس الى
الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور
النبات ويأوي الى الكهوف والمغاوير ويتقي بعض العوادي عليه
بالصهور والامشجار ويكتفي من الثياب بما ينخسف من ورق الشجر أو
جلود ايمانث من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى يشارف الدنيا ولكن
مثل هذا شلل النحلة تنفرد عن الدبر وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر
لنوعه وإنما الانسان نوع من تلك الانواع التي غرز في طبيعتها أن تعيش

مجتمعة وان تعذت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقاءه وللجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه وأودع في كل شخص من أشخاصها شعور ما يحتاجه الى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة في بيانه وكفالك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا في جملة ما وهبه من قوة الطبق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعاني في الالفاظ وتأليف العبارات الا لاستخدام الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدى العاملة فتمتد الحاجة وعلى ثرها الصلوات من الاكل الى العشرة ثم الى الامة والى السوع بأسره . وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تم النوع كما لا يخفى . هذه الحاجة خصوصاً في الامة التي حققت عنوانها الصلات وعلائق ميزتها عن سواها حاجة في البقاء حاجة في التمتع عزايا الحياة حاجة في جلب الرغائب ودفع المكار من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على أساليب الحاجة في غيره كانت نهضة متممة افضل عوامل المحبة بين أفرادها شامل يشعركل نفس أن يبقعه من ربط بقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لئلا ينفذها ودرمضاتها والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب هي الدافع لكل من المتحايين على العمل للصحة الآخر الناهض بكل منهما للدافعة عنه في حالة

الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا للنظام الام وروا بقائها
وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون
فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت
ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تتشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة
الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها في
الانسان الا اذا كان منشؤا أمر في روح المحبوب وشماله التي لا تفارق
ذاته حتى تكون لذة الوصول في نفس الاتصال لا في عارض يتبعه فاذا
عرض التبادل والتعاض ولوحظ في العلاقة بينهما تحولت المحبة الى
رغبة في الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين
الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة الخفاة أو الدهان والخديعة
من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه
مصدرا لاحسان اليه في سد ادعوزه غصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة
في شعوره بصورته من يكفاه له فهو يتوقع فقد هابه فقد فخرص عليه
حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزة الى حوزة آخر وغاب عنه السنين
ثم رآه معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا وان دفع
الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذي هدى به شعور الكلب ليس مما تنفع به المذاهب
فوسعه ان يرتد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءها مذهب فاجته في

سدعو زه هي حاجته الى القائم بأمره فيجبه محبته لنفسه ولا يبخس منها
شوب التعاوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ما هو فليس أمره على ذلك ليس من بلهم ولا يتعلم
ولا من يشعر ولا يتفكر بل كان كاله النوى في اطلاق مداركه عن القيد
ومطالبه عن النهايات وتسليمه على صغره الى العالم الا كبر على جلالته
وعظمه يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافع
وهي غير محدودة وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة
ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه وينبع ذلك أن يكون له في كل كائن ما
يصل اليه لذة ويجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهى رغائبه الى غاية ولا تنف
مخاوفه عن دنياه (إن الانسان خلق هلوفا اذا مسه الشر جزوعا واذا
مسه الخير منوعا) تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل وفي
الهمة والعزم فبهم المقصر ضعفا وكسلا المتطاول في الرغبة مشهوة
وطمعا يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤن وجوده ولكنه
يذهب من ذلك الى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ولا يمتنع
بمعاوضته في ثمره من غارعه وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ويرى
استيرى أن يقيم مقام العمل بأعمال الفكر في استنباط ضرور الحيل ليتمتع
وان لم يتمتع ويغيبه هذا حتى يتخيل له أن لاضير عليه لا يفر دبال وجود
عن يطلب مغالته ولا يبال بارساله الى عالم العدم بعد تسليمه فكلاما
حسه الذكر والخيال الى دفع مخافة الوصول الى الذي فتح له الفكر بابا من
الحيلة أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام لتأهب مقام التواهب

وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة
ولما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس في الذائد الجسدانية وتجاهل
أفراده طمعا في وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية كلا
ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية وكان من أعظم همهم أن يشعر
بالكرامة له في نفس غيره ممن تجتمع معهم جامعة ما حسب ما يعتد اليه نظره
وقد بلغت هذه الشهوة حدًا من الانفس كادت تغلب على جميع الشهوات
وأخذت لتنة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات
وهي من أفضل العوامل في إمرار الفضائل وتمكين الصلوات بين
الافراد والامم لو صرفت فيما سبقت لاجله ولكن انحرف بها السبيل
كما انحرف بغيرها لاسباب التي أشرنا اليها من التفاوت في مراتب الادراك
والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى إعلام منزلته في
القلوب باخافة الامن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة الخفاة
لاتهمب الحرمه

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة
على تعاونهم ورفض بعضهم بعضا في الاعمال أو لا تكون هذه الافعال
السابق ذكرها سببا في تفاتهم لاريب أن البقاء على تلك الاحوال من
ضروب المحال فلا بد للنوع الانساني في حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب
منها

بأبعض أعل البصيرة في أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض
العارفين ونطق به في كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة ثم لا يخلو القول

من حكمة ولكن من الذي يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها . قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال يبايع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصاله الحكم تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات وتعاليمهم فوق ما تخليه المخالوف فيعرفون لكل حق حرمة ويعيزون بين التمتايفي ومنفعة ما يبق ومنفعة ما يبق وقد جاء منهم أفراد في كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا أعمال الانسان الى ما تحضر لذته وتوسع عاقبته وهو ما يجب اجتنابه والى ما قد يشق احتماله ولكن تسرعت بآه وهو ما يجب الاخذ به ومنهم من أنفق في الدعوة الى رآيه نفسه وماله وقضى شهيد إخلاصه في دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم فهو لا لعلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجب في الحق ظاهره ولكن هل سمع في سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد صواب وهل كفى في إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم منهم مخطئون وإن تصوب فيه يدعوهم اليه وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وبطل من ضرورة المحبة للبقاء كلام يعرف ذلك في تاريخ الانسان ولا هو بما ينطبق على سنته فتقدم لنا أن مهيب الشقاء هو تفاوت الناس في الادراك وهم مع ذلك يدعون المساواة في العقول والتقارب في الاصول ولا يعرف وجه ودهم من حال الناضل إلا كما يعرف

من أمر الجاهل ومن لم يكن في مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من
الفضل فجرد البيان العقلي لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة وقد يكون القائم
على ما وضع من شريعة العقل عن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب
بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتقدم بناؤها ويفقد ما قصد
بوضعها

أضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الالهواء شعوراهو
ألقى بالغريرة البشرية وأندلز ومالها كل انسان مهمما علا فكره
وقوى عقله أو ضعفه نطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه أنه
مغلوب لا قوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه
محكوم بأرادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم في وجوه قد لا تعرفها
معرفة العارفين ولا تطرف اليها ارادة المختارين تشعر كل نفس أنها
مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسم انارة ومن عقلها أخرى
ولا سبيل لها الا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر فذهب
كل في طلبها وراة رائد الفكر فنه من تأولها بيه بعض الحيوانات لكثرة
نفعها أو شدة ضررها ومنهم من تمثلت له في بعض الكواكب لظهور
أثرها ومنهم من ججته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من
تمثلت له آثار قوى مختلفة في أنواع متفرقة تتماثل في أفراد كل نوع
وتتخالف بتخالف الأنواع فجعل لكل نوع إلها ولكن كلما رقى الوجدان
واطفت الالهة ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل
من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة
واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود غير أن من أسرار الجبروت ما غمض

عليه قلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة في قومه ما يحملهم
على الاهتمام بهديه فبقى الخلاف ذاتها والرشد ضائعاً اتفق الناس في
الادعان لما فاق قدرهم وعلامتناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا في فهم
ما تلجئهم الفطرة الى الادعان له اختلافاً كان أشد أثر في التقاطع بينهم
وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم في فهم النافع والضار والغلبة
الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش في جملة ولم يمنع مع تلك الفطرة
ما منحه التحل وبعض أفراد النمل مثلاً من الالهام الهادي الى ما يلزم لذلك
وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاھر
تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور
عرفانه بذات ذلك القاھر ولا صفاته وانما ألقي به في مدارج النظر تحمله
الافكار في مجاريه او ترمى به الى حيث يدري ولا يدري وفي كل ذلك الويل
على جامعته والخطر على وجوده أهمل مني هذا النوع بالنقص ورزى
بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأخطأ في منازل الوجود
نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب في شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملوكوت
ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ويسامى بقوته ما يعظم عن أن
يسامى من قوى الكون الاعظم ثم يصغر وينحط الى أدنى درك
من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه
ذلك لسر عرفة المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين
من ذلك الضعف قيد الى هداه ومن تلك الضعفة أخذ بيده الى شرف

سعادته أكمل الواهب الجواد الجملة ما اقتضت حكمته في تخصيص نوعه
بما يميزه عن غيره أن ينقص من أقراده وكما جاد على كل شخص بالعقل
المصرف للعواس لينظر في طلب الثمرة وسر العورة والتوفى من الحر والبرد
جاد على الجملة بما هو أوسع بالحاجة في البقاء وآثر في الوفاة من غوائل
الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالاجتماع من
عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت
منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه
أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة
فأقام له من بين أقراده مرشدين هادين وميزهم من بينه بأخصائص في
أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأين ذلك زيادة في الانقياد بآيات باهرات
تلك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذي الطامح
ويذل الجاح ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده وينهر لها بصير
الجاهل فيرتد عن غيبه بطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون
المداركة ببواهر من آياته فيصيطنون العقول بما لا سند وحة عن الادعاء له
ويستوى في الرككون لما يحميئون به المال والمملوك والسلطان
والصعول والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الادعاء لهم
أشبه بالاضطراري منه بالاختياري بالنظري يعلمونهم ما شاء الله أن يصلحها
معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلمهم من شؤون ذات وكمال صفاته وأولئك
هم الانبياء والمرسلون فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متمامات كون
الانسان ومن أعظم حاجاته في بقائه وموثلتها من النوع مستغنة أئمة من

الشخص نعمة أعماها الله لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
وستنكم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحي

الكلام في امكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصور المعنى الذي يراد منه
ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر في فهم معنى المصدر نفسه ولا يعيننا
ما شبهه الالفاظ في الازمان ولذا كرم اللغة ما يناسبه . يقال وحيت اليه
وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك والمكتوب
والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يليق الى الانبياء من قبل
الله وقيل الوحي إعلام في خفاء وبطلق ويراد به الموحى وقد عزتوه مشرعا
أتم كلام الله تعالى الى القول على نبي من أنبيائه أما نحن فتعترفه على شرطنا بأنه
عرفان يحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير
واسطة والاول بصوت يمثل لسمعه أو بغير صوت و يفرق بينه وبين الالهام
بأن الالهام وجدان تسبقه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور
منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور أما
إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشف ما غاب من
مصالح البشر عن غائبان يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل ملا
أراه مما يصعب ادراكه الاعلى من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه
الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أساس يقذف
بهم الطيش والنقص في العلم الى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون في
غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم

الرب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة اليه فكأنهم بسقطتهم
 هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسبون
 العقل وشؤنه وسره ومكنونه ويحسدون في ذلك لئلا يلاقوا عن قيود
 الاوامر والنواهي بل عن محابس الحشمة التي تضمهم الى التزام ما يليق
 وتجزهم عن مقارفة ما لا يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا
 عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والاديان وهم من أنفسهم هائم
 بالاصغاد افعوهم بما أووا من الاختيار في النظر وانصرفوا عنه وجعلوا
 أصابعهم في آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزهم العقيدة
 وتبهمها الشريعة فيحرموا الذمة ماذا أقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو
 مرض في الانفس والقلوب يستشفي منه بالعلم ان شاء الله

قلت أي استحالة في الوحي وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره
 من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر
 وما خ النظر متى حفت العناية من ميرته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلوب بعضها بعضا وأن
 الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الاجال وأن ذلك
 ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت في القدر
 التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة في أن من النظريات
 عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو أرق منه ولا تزال المراتب
 ترتقي في ذلك الى ما لا يحصر العدد وان من أرباب الهمم وبكار النفوس
 ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ثم يدركه والباص دونه ينكرون
 بدايته ويحبون نهايته ثم بالقون ما صار اليه كأنهم من المعروف الذي

لا ينازع والظاهر الذي لا يجاحد فإذا أنكره منكرنا روعا عليه نورتهم
في بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على
قلته ظاهرا في كل أمة الى اليوم

فإذا سلم «ولا يحصى عن التسليم» بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف
العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم
بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة
ما تستغني به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالافق الاعلى وتنتهى
من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم
يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعضى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم
الحكيم ما يملو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر
عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما علمت على ابلاغه اليهم
وأن يكون ذلك سنة لله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة يظهر
برحمته من يختص به عناية ليقى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى
أن يبلغ النوع الانسانى أشده وتكون الأعلام التى نصبها له دايته الى
سعادته كافية فى ارشاده فقتضت الرسالة ويفلق باب النبوة كما سنأتى عليه
فى رسالة تيننا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالمية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية
فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا الى العلم قديمه
وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو اللطيف من المادة وان غيب عنا
فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم

الالهى وأن يكون لنفوس الانبياء إشراف عليه فإذا جاء به الخبر الصادق
جلنا على الاذهان بعينه

أما مثل الصوت وأشباح تلك الارواح في حين من اختصه الله بتلك
المرتبة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه في بعض المصابين
بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل في
خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض في قوله انه يرى
ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شيء من ذلك في الحقيقة بواقع فان جاز
التمثل في الصور المعقولة ولا منشأ لها الا في النفس وان ذلك يكون عند
عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثيل الحقائق المعقولة في النفوس
العالية وأن يكون ذلك لها عند ما تزعج عن عالم الحس وتصل بمخاطرات
القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل في أهل تلك الدرجة
لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد في مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن
يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف في تلك العلاقة من
سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يقتضيه لان شأنهم في الناس أيضا غير
الشؤون المألوفة وهذه المعايير من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على
رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن
أمراض القلوب تشفى بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل
بالقوة في أعينهم التي تأخذ بمقالهم ومن المنكر في البديهة أن يصدر الصحيح
من معتل ويستقيم النظام بمخل

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن
مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى

شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظاً من الانس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس لهم مشاركة في بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحراف ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم بما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم بما ينكره العقل الصحيح أو يحجب الذوق السليم واندفاعهم بيباعث من الحق الناطق في سرائرهم المتلائي في بصائرهم المدعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوم آلامهم ومآل من غرروا به ولا يكون لهم إلا سوء الأثر في تضليل العتول وفساد الأخلاق وانحطاط شأن القرم الذين رزواهم إلا أن يدركهم الله بلطفه فتكون كلماتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الأقرار بما كان ما أنبؤا به بل وبوقوعه إلا حجاب من العادة وكثيراً ما يجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة

وقوع الوحي والرسالة

الدليل على رسالة نبي ومصدق فيما يحكي عن ربه ظاهر للشاهد الذي يرى حاله ويصبر ما آتاه الله من الآيات والبينات ويحقق بالعيان ما يغيبه عن البين كما سلف في الوجه الأول من الكلام على الرسالة أما الغائب عن

زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما بين في علم آخر رواية خبر عن مشهود
من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين
بما جاء فيه كالأخبار بوجود مكة أو بان للصين عاصمة تسمى بكنين وسبب
استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوهم من
عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك إلى العدد وبعد الراوى عن
التسبع لضمون الخبر

لا تراعى العقلاء في أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالخبر به
وانما النزاع في اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط
التواتر كإبراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به خبر أنهم لم يكونوا فيهم نعوذا
بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ولم يختصم أحدهم بالعبادة بهم
لتعليمهم علم مادعوا إليه وغاية الأمر أنهم لم يكونوا من الأديان الذين تعافهم
النفوس وتبوع عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة
المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة إلى الله على
رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم في عروشهم وأدعوا
أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس وأقاموا
من الدليل ما تصاغر دونه قوة المعارضة ثم ثبت في الكون شراقتهم
ثبات الغيرة في القطر وكان الخير لأمرهم في اتباع ما جاء به حلفتهم القوة
واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ودرأهم الضعف وغالبهم
الشقاء ما انفروا عنها واخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الأدلة عند
التحدي لا يصح معه في العقل أن يكونوا كاذبين في حديثهم عن الله ولا في
دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتد بما يقول

لا يبقى لمقاله أثر في العقول والباطل لا يقامه الا في الغفلة عنه كاتبات
 الخبيث في الارض الطيبة ينبت باهمالها وينمو باغفالها فاذا لامستها
 عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاه ولكن تلك الديانات التي
 جاء بها أولئك الانبياء قامت في العالم الانساني ما شاء الله مما قدر لها مقام
 سائر قوام مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المعالين فلا يمكن أن يكون
 أسس الكذب ودعامتها الخيلة وكلامها هذا في جوهرها الذي يلوح دائماً
 في خلال ما الحق بها المبتدعون أما بقية الرسل فمن يجب علينا الايمان
 بهم فيكون في إثبات نبوتهم إثبات رسالة تيناصلي الله عليه وسلم فقد
 أخبرنا برسالته وهو الصادق فيما بلغه وسنأتي على الكلام في رسالة
 نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في باب على حديثه ان شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تتبين مما تقدم في حاجة العالم الانساني الى الرسل أنهم من الامم بمنزلة
 العقول من الأشخاص وأن بعثهم حاجة من حاجات العقول البشرية
 قضت رجة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميزها
 الانسان عن بقية الكائنات من نفسه ولكنها حاجة روحية وكل
 ما لا من اللحم منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء
 الضالة أو تقويم مسلكاتها أو إيداعها ما فيه سعادت في الحياتين أما تفصيل
 طرق المعيشة والحدق في وجوه الكسب وتناول شهوات العقل الى درك
 ما عدل الوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من
 وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك

كله أن لا يحدث ريب في الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا على
حكيماته متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكمالات
إليه في أمها مخلوقة له وصنع قدرته وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها
من الكمال وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الاعمال السابقة أحدا من الناس
بشر في نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على
ما حد في شريعتهما

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته وبينون
الحدا الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق
عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة
الخلق على إله واحد لا فرق معه ويخاون السبل بينهم وبينه وحده
وينهضون نفوسهم الى التعلق به في جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم
بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة
لنفسى وتركيبه مستمر قلن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد
الستيقن يقينا

يبينون للناس باختلاف عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم
ولذاتهم فيفصلون في تلك الخصامات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما
يلفون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تقوت به المنافع الخاصة
يعودون بالناس الى اللفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلقتونهم الى
أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم
ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها أنهم يتدبرهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل
حق الاخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز في الطلب حده وأن

يعين قلوبهم ضعيفهم ويمدغنيهم فقيرهم ويهدي راشدهم ضالهم ويعلم
عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم
كاحترام الدماء البشرية والاجتهاد مع بيان الحق الذي تهمله وحظر تناول
شيء مما كسبه الغير الاجتهاد مع بيان الحق الذي يبيع تسوله واحترام
الاعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ويشرعون لهم مع
ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات القاضية كالصدق والامانة والوفاء
بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة
الاقرباء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على
تحويل أهوائهم عن الذنائب الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين
في ذلك كله بطرق من الترغيب والترهيب والانهاد والتبشير حسبما
أمرهم الله جل شأنه

يفصلون في جميع ذلك الناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم
لخطئه عليهم ثم يحيطون ببيانهم بنار الآخرة وما أعد الله فيها من
الثواب وحسن العقبي لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب
الذنوب في محاطة يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده في العلية
مما لو صعب على العقل كسأله لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتنبئ الصدور ويعتصم المرزوق بالصبر انتظاراً
لجزيل الاجر أو ارضاه لمن يسده الامر وبهذا ينحل أعظم مشكل في
الاجتماع الانساني لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم
ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس

مما جازأله تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما يحتاج اليه النباتات في نموها ولا ما تنفق اليه الحيوانات في بقاءه اثنانها وانواعها وغير ذلك مما وضعت العلوم وتساقفت في الوصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر عما أودع فيهم من الادراك يزيد في سعادة المحصلين ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يبع طريقة التدرج في الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

أما ما ورد في كلام الانبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا في أحوال الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبواطنه ولغتهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والاضاعت الحكمة في ارسالهم ولهذا قديما في التعبير الذي سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حيزا بين الارواح وبين ما عجزها الله به من الاستعداد للعلم بمحتائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب أن يكون الدين باعناها على طلب العرفان مطالبها باحترام البرهان

فارضاعليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من
العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد
ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب
الدين

اعتراض مشهور

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكما للنظام
اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخرية فبالهم لم ينزلوا أشقياء
عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون
يتهاجون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الاجبي والنوبة
حشوا لودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عدا أهل كل ذي دين دينهم
حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان
فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تشق
عصاهم وتختلف مذاهبهم في فهمه وتتفارق عقولهم في عقائدهم
ويثور بينهم غبار الشر وتنشبت أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم
ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويمهم ضعيفهم فيستقرا الامر للقوة
لالحق والدين فهما هو الدين الذي تقول إنه جامع الكلاسة ورسول الحجة
كان سببا في الشقاق ومضرا للضعيفة فهاهنا الدعوى وما هذا الاثر
نقول في جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء
عهدهم ووقوع الدين في أيدي من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا
يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن

ضائق سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخير من
تبعتهم ولا يقل لنا أى نبي لم يأت أمته بالخير الحتم والفيض الأعم ولم
يكن دينه واقيا لجميع ما كانت تنس اليه حاجتها في أفرادها وجلتها
أعلن أنك لا تخالفنا في أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل الا قليلا
لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق
ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن
أن يأتي بها معبرنا أدركوا منها الاخيالا أثره في تقويم النفس ولا في
اصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات في حالها التي لا تفارقها من تلاعب
الشهوات بها ثم انصب نفسك واعظا منها في تخفيف بلاساقه النزاع اليها
فأى الطرق أقرب اليك في مهاجمة شهواتهم وردّها الى الاعتدال في رغائبها
من البديهي أنك لا تجد الطريق الاقرب في بيان مضار الاسراف في
الرجب وفوائد القصد في الطلب وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب
العقول السامية الا بطويل النظر وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن
تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب
فتذكره بقدرته الله الذي وهبه ما وهب الغالب عليه في أدنى شأنه اليه
المحيط بما في نفسه الاخذ بأزمة هممه وتسوق اليه من الامثال في ذلك
ما يقرب الى فهمه ثم تروى له ما جاء في الدين المعتقده من مواعظ وعبر
ومن سير السلف في ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة وتنش روحه بكثرة
الله اذا استقام ورسخته عليه اذا تقم عند ذلك ينحس من القلب وتدمع
العين ويستحذى الغضب وتحمده الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله الا
أنه يرشني الله وأوليا ما نأطاع ربنا منكم اذا عصي ذلك هو المشهود

من حال البشر غاب عنهم وحاضرهم ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم كم
سمعت أن عيوناً بكث وزفرات صعدت وقلوباً خشعت لواعظ الدين
لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدي نصاح الأدب وزعماء السياسة . متى
سمعت أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لمافيه من
المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ويتقى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من
مضار ومهالك هذا أمر لم يعهد في سير البشر ولا ينطبق على فطرهم
ولإنما أقوام الملوك هو العقائد والتقاليد ولا قيام الأمرين إلا بالدين
فعامل الدين هو أقوى العوامل في أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه
على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذي هو خاصة نوعهم

فلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هي منزلة العقل من الشخص أو منزلة
العلم المنصوب على الطريق المسلول بل نصل إلى ما فوق ذلك ونقول منزلة
السمع والبصر أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من
المناظر وبين الطريق المسلول والمعار الوعرة ومع ذلك فتدبىء
البصير استعمال بصره فيتردى في هاوية تملك فيها وعيناه سلیمان تلعبان
في وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو إلهاء وعناد . وقد
يقوه من العقل والحس ألف دليل على مضرته شيء وبه علم ذلك الباعث في
رأيه من أن ليس شيء ألف تلك الدلائل الظاهرة ويقصم لمكره
لقضاء شهوة الجأج أو ضوؤه ونكر وتوقع منه . أمثال لا يتقص من قدره
الحس أو العقل فيما خلق لأجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام
هداية تصبها الله على سبيل النجاة ثل الناس من اهتدى بها فانتهى إلى
غايات السعادة ومنهم من غلط في فهمها أو انحرف عن هديها فانكب في

مهاوى الشقاء فالدين هادوا والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء
 به ولا يطنن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه « يضل به كثيرا
 ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » ألا إن الذين مستقر
 السكينة ولجا الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له وبه يدأب عامل حتى
 يبلغ الغاية من عمله وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة في
 الكون وبه ينظر الانسان الى من فوقه في العلم والفضيلة والى من
 دونه في المال والجحاماتباع الماوردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه
 بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية . الدين قوة
 من أعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها
 من القوى وكل ما يرجع الى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن
 بصدده فتبعته في أعناق القائلين عليه الناصين أنفسهم منصب
 الدعوة اليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه وما عليهم
 في ابلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهدوا به ويرجعوا به الى أصوله
 الطاهرة الاولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته وتظهر
 للاعنى حكمته

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين
 باهمال العقل بالمرتبة في قضايا الدين وبأن أساسه هو التسليم المحض وقطع
 الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام
 . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين عالما يهدي به
 وانما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه
 سعادة الامم بدون مرشد الهى كما لا يستقل الحيوان في درك جميع

المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لا يتبعها من السمع لا إدراك
 السموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشبهه على
 العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان في معرفة
 تلك الحاسة وتصرفها فيما نحت لاجله والاذعان لما تكشفه
 من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه في ذلك
 وهو الذي ينظر في أدلتها ليصل منها إلى معرفتها وانها آتية من قبل
 الله وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به
 وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته ولا يقضى
 عليه ذلك بقبول ما هو من باب الحال المؤدى الى مثل الجمع بين التقيضين
 أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد فان ذلك مما استنزه
 النبوات عن أن تأتي به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك في شيء من الوارد فيها
 وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك
 في التأويل مسترشداً بيقينة ما جاء على لسان من ورد التشابه في كلامه
 وفي التفويض الى الله في علمه وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالاول
 ومنهم من أخذ بالثاني

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا في هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الامامة وتاريخ الحرب
 خاصة في زمن البعثة المحمدية لتبين كيف كانت حاجة سكان الارض
 ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم
 وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من

رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سماء الحق على آدم الانفس
 البشرية لتأكل ما عشو شبت به من الاباطيل القاتلة للعقول وصحة
 فحصى ترعج الغافلين وترجع باللبب الذاهلين وتبسه المرؤسين الى
 أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين
 والقادة الغادرين وبالجملة تؤب بهم الى رشديقيم الانسان على الطريق
 التى سنها الله « انا هديناه السبيل » ليلعبوا وكما كماله ويصل
 على نهجها الى ما عدى الدارين له ولكننا نسير من التاريخ كلمة
 بفهمها من نظريتها اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد تظن لمعان وإنصاف
 كانت دولتنا العالم دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب
 فى تنازع وتجاهل مستمر دمايين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة
 وأموال هالكة وظلم من الاحس حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو
 والترف والاسراف والنخفة والتفنن فى الملاذ البغية حدة ما لا يوصف فى
 قصور السلاطين والامراء والقوادير رؤساء الاديان من كل أمة وكان
 شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا
 فى فرض الاتاوات حتى أنفقوا طهور الرعية بغطالهم وأنواعا فى أيديها
 من غمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما يبدا الضعيف
 وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على
 تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب
 لفقد الأذن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم تعادعولا كاشباح اللاعب يديرها
 من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الالباب فقد قبلت

الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا لخدمة ساداتهم
وتوفير لذاتهم كما هو الشأن في الجياوات مع من يقتنيها . ضلت
السادات في غفائدها وأهوائها وغلبت على الحق والعقل شهواتها
ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن
يصيب النور الالهى الذى يحاط الفطر الانسانية قد يفتق العلف
التي أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول فتمتدى
العامية الى السبيل ويشور الجمل الغفير على العدد القليل وذلك لم يغفل
الملوك والرؤساء أن ينشئوا سجا من الأوهام ويهيموا كسفا من الاباطيل
والخرافات ليقدفوا بها في عقول العامة فيغلب الحجاب ويعظم الرين
ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوين لهم وصرح
الدين بأسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ما يثمره النظر الا ما كان
تفسيرا لكتاب مقدس وكان لهم في المشارب الوثنية يتابع لانتصب
ومدد لا ينفذ هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم وذلك كان شأنهم
في معاشهم عبيداً ذلاء حيارى في جهالة عمياء اللهم الا بعض شوارد
من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الازهان
ومعهاقت الحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على أصول
العقائد ونسروها بما انتاب من الوضع وانعكس من الطبع فكان
يرى الدنس في مظنة الطهارة والسرور حيث تنتظر القناعة والدعارة
حيث ترجى السلامة والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب
واصرافه لاؤل وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب
على المسدرك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشرعية معا

وظهرت مذاهب الاباحيين والدهرين في شعوب متعددة وكان ذلك
ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات نغر
كل قبيلة في قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبي نساها وسلب
أموالها تسوقها المطامع الى المعامع ويزين لها السيئات فساد
الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من
الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعف الاخلاق وهنا
قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتن
وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعقاف قيمة وبالجملة فكانت ربط
النظام الاجتماعي قد تراخت عقدها في كل أمة وانقصت عراها عند
كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤثبهم رجل منهم يوحى اليه
رسالته ويمنحه عنايته ويمدّه من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك
القيم التي أظلت رؤس جميع الامم نعم كان ذلك وله الامر من قبل
ومن بعد

في الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠ ابريل سنة
٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم القرشي بمكة ولديتما توفي والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال
الا خمس جال وبعض نعا وجارية ويروى أقل من ذلك وفي السنة
السادسة من عمره فقدوا والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد
سنتين من كفالته توفي جده فسكره من بعده عمه أبو طالب وكان شهما

كر بما غير آتاه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبيته قومه كل واحد منهم على ما به من يتم فقد فيه الإيوان معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤتب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الأوهام وأقرباء من حفدة الأصنام غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالأمين أدب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون رقيعوا والناس متعطون موحدوا وهم وثنيون سلبواهم شايغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيمافقرا أتيامثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الحزن من كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه عن مخالطة لاسيما ان كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينهيه ولا عضدا اذا عزم يؤيده فلو جرى الامر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بعذابهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهد ولكر الامر لم يجز على سنته بل بغضت اليه الوثنية من مبداء عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليفة وما جاء في الكتاب من قوله «ووجدك ضالا فهدى» لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد

أوعلى غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش الله إن ذلك لهو الافك
البعين وانما هي الحيرة ثم يقول أهل الاخلاص فيما يرجون للناس
من الاخلاص وطلب السبيل الى ما همدوا اليه من انقاذ الهالكين
وارشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تلمسه بصيرته باصطفائه
لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجدشياً من المال يستحاجته « وقد كان له في الاستزادة منه ما يرفه
معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها في تجارتها وبما اختارته بعد
ذلك زواجها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عملها غناؤه وعون على بلوغه
ما كان عليه أعظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك
ما كان يسلكه مثله في الوصول الى ما ترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم
به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد
والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتخنت بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه
في طلب المخرج من همه الأعظم في تخلص قومه ونجاة العالم من الشر
الذي تولاها الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحنه اليه الالهام الالهى
وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحي من المقام العلى في تفصيل
ليس هذا موضعه

لم يكن من آباءه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه في
انصراف تام عن طلب مناصب السلطان وفي قناعة بما وجدوه من
شرف النسبة الى المكان دل عليهم ما فعل جده عبد المطلب عند زحف
أبرهة الحبشى على ديارهم . جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم
معبدهم العلم ويهتهم الحرام ومنتجع حبيهم ومستوى العاية من

آلهتهم ومنتهى حجة القرشين في مفاخرهم لبنى قومهم وتقدم بعض
 جنده فاستاق عددا من الابل فيها العبد المطلب ما تباعير وتخرج
 عبد المطلب في بعض قرش لمقابلة الملك فاستدناهم وسأله حاجته فقال
 هي أن ترد الى مائتي بعير أصبتها الى فلامه الملك على المطلب الحفير وقت
 الخطب الخطير فأجابه أنارب الابل أما البيت فلهرب يحميه هذا
 غاية ما ينتهى اليه الاستسلام وعبد المطلب في مكانه من الرئاسة على
 قرش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم في حاله من الفقر
 ومقامه في الوسط من طبقات أهله حتى يتجمع ملكا أو يطلب سلطانا
 لامل لاجاء لاجند لأعوان لاسليقة في الشعر لبراعة في الكتاب
 لاشهرة في الخطاب لاشئ كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة
 أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس
 ما الذي أعلى رأسه على الرأس ما الذي مما بهمته على الهمم حتى
 انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالتهم كشف النعم بل وإحياء الرمم
 ما كان ذلك الا ما ألقى الله في روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من
 عقائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك الا ووجد
 انه يرج العناية الالهية ينصره في عمله ويعتده في الانتفاء الى الله قبل
 بلوغ أجله ما هو الا الوحي الالهى يسمى نوره بين يديه يخشى عنه سبيل
 ويكفيه مؤنة الدليل ما هو الا الوعد السماوى فام لديه متمم القائد
 والجندي أرايت كيف نهض وجيدا فريدا يدعو الناس كافة الى
 التوحيد والاعتقاد بالعلو المجيد والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية
 وزندقه نادى في الوثنيين بك أو فلنهم ونبد معبوداتهم وفي المشبهين

المتخمين في الخلطين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من
 تشبههم وفي الشاوية بأفراد إله واحد بالتصرف في الأكون ورد كل
 شيء في الوجود إليه أهاب بالطبيين ليمتدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب
 الطبيعة فيتنبؤوا سر الوجود الذي قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا
 إلى مصاف العامة في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد هو فاطر
 السموات والأرض والقباض على أرواحهم في هياكل أجسادهم . تناول
 المتخمين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى فيزلههم
 بالدليل وكشف لهم نور الوحي أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر
 المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما اتحلوا لا تنقسمهم من المكانات الربانية
 إلى أدنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذي نفس إنسانية في
 الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق في النسبة إليه لا يتفاوتون
 إلا فيما قلل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة وخبر وعظه عبود
 العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ويحلوا
 أغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الأمل مال على
 تزياد الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية
 فيكتب الواقفين عند حروفها بغاوتهم وشدة الكبر على المخزفين لها
 الصارفين لالفاظها إلى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودعاهم
 إلى فهمها والتحقيق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم واستلفت
 كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية ودعا الناس أجمعين
 ذكرروا ألقائهم ورسادات إلى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع
 خصه الله بالعقل وسيزه بالفكر وشرقه بموحيه الإرادة فيما يرشده

اليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكواف
وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال
والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم
بذلك على أن يصلوا إلى معرفة حالتهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة
أحد إلا من خصهم الله بوحيه وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان
الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة إلى أولئك المصطفين
إنما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد
بوجوده وقرآن لاسلطان لأحد من البشر على آخر منه إلا ما رسمته
الشريعة وفرضه العدل ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما حضرت
له بمقتضى الفطرة . دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك
من عالمين متخالفين وإن كانا متزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً
وإبناء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق . دعا الناس كافة
إلى الاستعداد في هذه الحياة لمسايقون في الحياة الأخرى وبين لهم
أن خير زاد ينزله العامل هو الإخلاص لله في العبادة والإخلاص للعباد
في العدل والنصيحة والإرشاد

فإن هذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة كل هذا كان منه
والناس أمعاء ما أنفقوا وإن كان خسران الدنيا وسرمان لاخرة
أعداء ما جهلوا وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة
كل هذا والقوم حو اليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون
دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء
الخاصة وجبت عقول الخاصة بغرور العز عن النظر في دعوى فقير

أى مثله لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة
باللوم والتعنيف

لكنه في فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم
بالنصيحة وينبجهم بالزجر وينبهم العبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة
الحسنة كأنما هو سلطان قاهر في حكمه عادل في أمره ونبيه أو أب
حكيم في تربيته أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤوف بهم في شدته
رحيم في سلطته . ماهذه القوة في ذلك الضعف ماهذا السلطان في مظنة
الجزء ماهذا العلم في تلك الأتمية ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية . إن
هو الاخطاب الجيرون الاعلى قارعة القدرة العظمى نداء العناية
العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شئ الذى وسع كل شئ رجة
وعليا . ذلك أمر الله الصانع يقرع الآذان ويشق الجلب وعزق العلق
وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو
أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة
برأى من التهمة لاتبائه على غير المعتادين خلقه . أى برهان على
المبتدأ أعظم من هذا أى دام يدعوا الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما
يقرؤن بعيدا عن مدارس العلم صاحب العلماء ليعصوا ما كانوا يفعلون
في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشئ بين الواهمين
هب لتقويم عوج الحكماء غريب فى أقرب الشعوب الى سداجة الطبيعة
وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم
أجمع أصول الشريعة ويخطط للسعادة طرقا لزيح لكسالكها ولن
يخلص تاركها ماهذا الخطاب الفهم ماذلك الدليل المجيب . أقول

ما هذا بشران هذا الاملك كريم لا لأقول ذلك ولكن أقول كما أمره
الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم بوحى اليه . نبي صدق
الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار أو يحير
الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعنته
واختص العقل بالخطاب وحكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة
الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان في نشأته وأمثته على الحال التي ذكرنا وواترت أخبار الامم كافة
على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب
في مصحف محفوظ في صدور من عسى بحفظه من المسلمين إلى اليوم
ككل حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة
والمستقبله نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي أخفتها الاوهام
بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا
من سيرهم وما كل ينهم وبين أهمهم وبراهم مما رماهم به أعداء دينهم
منتهزين برؤسهم كسندهم من أجل شدة حجة نبيهم من
شتمائهم وما سطوا احكامهم وما حرقوا بالتأويل في كتبهم
وشرع الناس احكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل
بها والمخافة عليهم وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة . كانت
عند حتم ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والافتخار عنها أو البعد

بها عن الروح الذي أودعته ففانت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين
للتأخر في شرائع الأمم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها
القلوب وتمسح لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها
في السبيل الأم . نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار
على أنه أرقى الأعصار عند العرب وأغزرها ما تقي الفصاحة وأنه الممتاز
بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وأنفس
ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج العظيمة والذكاء هو
الغلب في القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر
الاذعان من العقول وتغاثيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج إلى الإطالة
في بيانه

وآثر الخبير كذلك بما كان منهم من الحرص على معاوضة النبي صلى الله
عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريها وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه
في الاخبار عن الله وإتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم
الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معادته والامراء الذين يدعوهم
السُّلطان إلى مساواته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم
عن متابعتهم وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته وانهم الوابقوا هم عليه
استكبارا عن الخضوع له وتغسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية
لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه
أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم إلى سالم تعهدهم أيامهم ولم تخفق
لئله أعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله إلا تحديهم بالآيتين بمثل أقصر
سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم أن

يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليا توابشي من مثل
ما أتى به ليطلوا الحجة ويفهموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبير المتواتر أنهم مع طول زمن التعدي ولجاجة القوم في التعدي
أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على
كل كلام وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام . أليس في ظهور
مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس
من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن قمم العلم الالهي والحكم
الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالغلب
في قوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع
سنين وكأوعد الصريح في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخفّنهم في الارض كما استخف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع
ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن
الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب بهوا كنفائه في الرجوع
عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها
وتباعد أطرافها واتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع
أرجائها وسع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها
والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الاطاحة بما أودع في
قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاسم منه بأنهم لن
يستطيعوا أن يأتوا بشي من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ومن
الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط

كلذى شرطه على نفسه لغلبة الطن عند من له شيء من العقل أن الارض
لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير
هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بصور جميع القوى عن تناول
ما استنهمهم له وبلغ ما حتمهم عليه

يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الاخام والزام
الخصم وقد يلزم الخصم ببعض المسلمين عنده فيفهم ويعجز عن الجواب
فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك يلزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما
سلمه فلا يفهمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين اعجاز
القرآن واعجاز الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما اعجز وشتان بين
العجزين وبعد ما بين وجهتي الاستدلال فيهما فان اعجاز القرآن برهن
على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكاتبة من البلاغة
وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند
جميع العرب في عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا
وحال التهم في اعجازنا ومع ذلك يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء
من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة
البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى
جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية وامتيار
الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد
مسدوره عن البشر غير اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم
ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما

أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمرهم مع ما سبق تعداده من الأمور التي لا يمكن معها العاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل **ككل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصع على العادة**

ثبتت بهذا المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد في الكتاب المنزل عليه والاختداب كل ما ثبت عنه من هدى وسترة متبعة وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بني علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامي وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انشئت دعوته بالسرعة المعروفة والسرفى كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامي أو الاسلام

هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاء عنه من صحابته ومن عاصره ومجرى العمل عليه حينما من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في تاريخه و ميل مع الشيع و في مجزئ في هذا الباب مقتنيا بالكتاب المجيد في التفويض لذوى البصائر أن يفقهوه وما سندی فيما أقول الا الكتاب والسنة القويعة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الأدلة على أن لا يكون خالقوا احد امتصفا بما دلت عليه آثار

صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه
 شيء من خلقه وأن لانسبة بينه وبينهم الا أنه موجودهم وأنهم له واليه
 راجعون « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »
 وما ورد من الفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها
 العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشكوا في شيء منها وان ذاته وصفاته
 يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص
 سبحانه من شاء من عباد به ما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه
 من الاعمال على سنه في ذلك منها في علمه الا زلي الذي لا يعتبر به التبديل
 ولا يدوم منه التغيير وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من
 ذلك إلا يبرهان ينتمى في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البدييات
 التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين
 أو ارتفاعهما معاً أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلاً وقضى على
 هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يمكن أن يكون لانفسهم نفعاً ولا ضرراً وغاية أمرهم أنهم
 عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو بآذن خاص وتيسير
 خاص في موضع خاص خكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من
 هذا إلا يبرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أنخرجكم من بطون أمماتكم
 لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون »
 والشكر عند العرب معروف أنه تصرف النعمة فيما كان الانعام بها
 لا جله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الخواص وغرز فينا من القوى
 ما تصرفه في وجوهه بعض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه

لها أو عليها وأما ما تعير فيه مداركنا وتقصرونه قوائمنا وتشعير فيه
أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمددنا فيها أدركها العجز عنه على أنه فوق
ما نعرف من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع إليه
والاستعانة به فذلك إنما يرد إلى الله وحده فلا يجوز أن نخضع لإله ولا
أن نطمئن لإله إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه
في الحياة الأحرى لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها
من الطيبات ولا في غفران أفعالها من السيئات فهو وحده مالك يوم
الدين

اجتنب بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لا يختلف عنها في الصورة
والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا
طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة
ثم تترد النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام
وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعلمهم وارتفع شأن
الإنسان وسعت قيمته بما صار إليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع
لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين وأبغ لكل
أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم «إني وجهت وجهي
للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين» وكما أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول «إن صلاتي ونسكي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين لا مريم لك وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»
تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة وأطلقت إرادته من القيود التي
كانت تعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من

الارادة الالهية أو أنها هي كرادقال رؤساء المسيطرين أو إرادة موهومة
 اخترعها الخيال كما يظن في القبور والاجار والاشجار والكواكب
 ونحوها واقتكت عزيمته من أسرار الوسايط والشفعاء والتكهنات والعرفاء
 وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلي حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه
 وبين الله الزاعمين وأنهم واسطة النجاة بأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة
 فقد اعتقت روحه من العبودية للحتالين والجهالين صار الانسان
 بالتوحيد عبد الله خاصة حرام العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق
 ما لا حرج على الحر لا على في الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا
 تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم في
 عقولهم ومعارفهم ولا يقرّبهم من الله إلا طهارة القلب من دنس الوهم
 وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسيين
 وتمحض الحق فيها الفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدي
 العالة وأهل البطالة من كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعبادته
 وخلصته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها
 ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا
 يره » « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من
 الشياطين ما شاء كالأشربة واللباس وزينة ولم يحظر عليه إلا ما كان
 ضارا بنفسه أو يمدخل في ولايته أو مائة على ضرره إلى غيره وحدته في
 ذات الحدود العامة بما يطبق على مصالح البشرية فكفل الاستقلال

لكل شخص في علمه واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد لها
 عتبة تتعثر بها اللهم الاحقا محترما تصطدم به
 أنحى الاسلام على التقليد وجل عليه حيلة لم يرتداعنه القدر فبددت
 فيالقه التغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المسدائد
 ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الامم صاح بالعقل صيحة
 أزجته من سباته وهبت به من فومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه
 شعاع من نور الحق خلصت إليه هنيئة من سدة هياكل الوهم « ثم فان
 الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليله والازواد
 قليلة » علا صوت الاسلام على وساوس الطعام وجهربأن الانسان
 لم يخلق ليقاد بالزمام ~~وا~~كنه فطر على أن يتدى بالعلم والاعلام
 أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلوم منبهون ومرشدون والى
 طرق البحث هادون صرح في وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون
 القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييزين ما يقال من غير فرق بين
 القائلين ليأخذوا بما عرفوا أحسنه ويطرحوا ما لم يبينوا أحسنه وتفعه
 ومال على الرؤساء فآزر لهم من مستوى كالوا فيه بأمرهم وينهون ووضعهم
 تحت أنظار مرؤسهم بخبرونهم كائناً ون ويتحذرون من أفعالهم حسبما
 يحكون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون
 . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما واثره عنهم الأبناء
 وسجل الحق والسفاعة على الآخذين بأقوال السابقين ونبهه على
 أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً للعقول على
 عقول ولا لأذهان على أذهان وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة

سيان بل للآحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للتطرف فيها والانتفاع
بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تتقدمه من أسلافه وإبائه
وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور
العواقب السيئة لآمال من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما
اقترفه سلفهم « قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »
وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن
قصيق عن دائب عاب أرباب الاديان في اقتنائهم أثراً بأبائهم ووقوفهم
عند ما اختطته لهم سيراً أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه
آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »
فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان
استعبده وردّه الى ملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع
ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعلم في منطقة حدودها
ولانهاية للنظر تمتد تحت بنودها

بما اومأ سبقه الى الانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما
استقراء لآراء راسية تدبر لرأي والفكر وبهما كتبت له انسانيته
واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هبأ الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها
وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية في أوروبا
انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول
للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقاً في
تصريف اختيارهم وفي طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع
من العرفان الا في الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقصر ذلك

الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله
في تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على
عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استنثارا من أولئك الرؤساء بحق
الفهم لانفسهم وضبابه على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم
لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو بأحوالهم أن يقرأوا قطعاً
من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولأن يطيلوا أنظارهم
الى ما ترى اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا انفسهم أيضاً من فهم الاقليلا
ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا
كأوقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فذهبوا
بحكمة الارسال جاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال « ومنهم أميون
لا يعلمون الكتاب الا أماني وإن هم إلا يظنون » « مثل الذين جالوا التوراة
ثم لم يحملوها كمثل الجارية يحمل أسقاراً بثس مثل القوم الذين كذبوا
بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » أما الاماني ففسرت بالقراآت
والتسلاوات أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا
اليه فهو عن غير علم بما ودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه
ديناً واذا عز لا حدهم أن يبين شيأ من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته
الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على ينة واعسف في التأويل وقال
هذان عند الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا
من عند الله ليشتروا به عنا قليلاً » أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة

وهي بين أيديهم بعد ما جاؤوا فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ولم تسم
عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام فعميت عليهم بذلك
طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التي نصبت
بأنزالها فحق عليهم ذلك المثل الذي أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية
أن تظهر به مثل الحمار الذي يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا
العناء والتعب وقصم الظهر وانهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلب
بهم الحال فما كان سببا في إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا
في شقاءهم بالجهل والغباوة وبهذا التفرع ونحوه وبال دعوة العامة إلى
الفهم وتخصيص الباب للتفقه واليقين مما هو منتشر في القرآن العزيز
فرض الإسلام على كل ذي دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه
وما قرأ من شرعه وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بأعداد
ما لا بد منه لفهمه وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المسلمين
لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مرتبته وقت من الأوقات

جاء الإسلام والناس شيع في الدين وإن كانوا إلا قليلا في جانب عن اليقين
يتناذرون ويتلاعنون ويرعون في ذلك أنهم بحيل الله مستسكون فرقة
وتخالف وشغب يظنونها في سبيل الله أقوى سبب أنكر الإسلام ذلك
كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله في جميع الأزمان وعلى
ألسن جميع الأنبياء واحد قال الله «إن الدين عند الله الإسلام وما
اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم»
«ما كان إبراهيم يرد يار لا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من

المشركين» «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والنبي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقلوا اشهدوا بانا مسلمون» وكثير من ذلك يطول اراده في هذه الوريقات والآيات الكريمة التي تعيب على أهل الدين ما تزعموا اليه من الاختلاف والمشافة مع ظهور الحجة واستقامة الحججة لهم في علم ما اختلفوا فيه معرفة لكل من قرأ القرآن وتلاوه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله في جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم في الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التي أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذي يرجع اليه عند هبوب ريح الخلاف وهو الميزان الذي توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء في الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولو حظ جانب العناية الالهية في الانعام على البشرية ذهب اختلاف وتراجعت فتوى لي عندنا وسار كما اقتضت ضرورة لهم اخوانا بالحق متمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فصدره رجة الله وراقتة في ابناء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة

والملازمة لزمان وكما جرت سنته وهروب العالمين بالتسديد في تربية
 الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً الى راشد في عقله كامل في
 نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم يختلف
 سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جلته
 ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه
 الله الى يوم يبلغ به من الكمال انتهاء بل سبق القضاء بان يكون شأن جلته
 في النمو قائماً على ما قدرته الفطرة الالهية في شأن أفرادها وهذا من
 البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان
 ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا
 نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه
 بطور الطفولية للناسي الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع
 تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه وأن يتناول
 بهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ولا ينقش في روعه من الوجدان
 الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الخرص على
 ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقي اليه فيما يسله بغيره اللهم الا اذا
 فصل الى فقه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك
 الأديان أن تخطب الناس بما يلطف في الوجدان أو يرقى اليه بسلم
 البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير
 الزلازل في سداجة السن لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعه أو
 يبصره فحذتهم بالاوامر الصاعدة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة

وجلتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمقول المعنى جلى الغاية وان
لم يفهموا بمعناه ولم تصل مداركهم الى حرماه وجاءتهم من الآيات بما
قطر في قلوبهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات
ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت
وحربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام الآلاما وتقلب
في السعادة والشقاء أياما وأياما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن
الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة
عما تشعر به قلوب النساء وتذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يحاطب
العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الالهواء ويحدث خطرات
القلوب فشرع للناس من شرائع الرهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملة ما
ويوجه رجوعهم نحو الملوك الاعلى ويقتضى من صاحب الحق أن
لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء في وجوه الاغنياء وما ينحو
نحو ذلك مما هو معروف ومن الناس سنن في عبادة الله تتفق مع ما كانوا
عليه ومادعاهم اليه فلا في من تعلق النفوس بدعوتهم ما أصلح من فاسدها
وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم
البشرية عن احتمالها وضاعت المنزلة عن رقرق عند رده والخذ
بأقواله ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فذهب القائمون
عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاجة أهل الترف في جمع
الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جاذبه بالتأويل وأضافوا
عليه ما شاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجيا والاعمال

نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد فقفروا شيئا وأحدوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائهم وهو حومان العقول من التطرف به بل وفي غيرهم دفاق الإكوان والخطر على الأفكار أن تنفذ إلى شيء من سررائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جنى في حل الناس على مذهبه بكل ما عاكس من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانغماس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين لا للزام ببعض قضايا الدين فتقوض الأمل وتخترمت العلائق بين الأهل وحلت القطيعة محل التراحم والخصام مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام

كان سن الاجتماع البشري قد بلغ بالإنسان أشده وأعتدته الحوادث الماخية إلى رشده فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم والبشركة مع العواطف والاحساس في ارشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والآخرية وبين الناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد ومشيئته في إصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الأشباح أنما هو تجديد الذكري في الأرواح وأن الله لا يتقرر إلى الصور ولكن يتقرر إلى القلوب ومطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه بإصلاح سره ففرض تظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعدة كالأمرين طهرا مطلوبا وجعل روح العبادة الاخلاص وإن ما فرض من الأعمال أنما هو لما

أوجب من التطيع بصالح الملكات « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، ان الانسان خلق هالوا اقامه الشريزوعا واذامه انخيرمنوعا الاالمصلين » ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعا الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن في ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى في صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم -م قل هاوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على أن التفرق بغي وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف في ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها في العمل فأباح للسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلهم بالتي هي أحسن ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة وعقد اللفة والمصاهرة ما تكون بعد التعاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما برابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقتضونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكرافى الدين وطيب قلوب المؤمنين في قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا هتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتي هي أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة في الغسل على الاسلام

فإن نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية في الأمر بالمعروف بين المسلمين فإنه لا اعتداء إلا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير «على كل واحد منكم نفسه» لا «عليكم أنفسكم» كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين لينفروا فيه ولكن ليهديهم إلى الخير في جميع نواحيه

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الإنساني بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحولون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسهيل المسألة على أصناف زعموا أنهم الن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأما توابع ذلك الأرواح في معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباهاً

هذه عبادات الإسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصد عن تلك الشعور بالسلطان الإلهي الذي يهزم القوة البشرية ويستغرق الحول فتخضع له القلوب وتستخذي لها النفوس وليس فيما شئ يعاود على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات أو رمي الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير أما الصوم حرمان يعظم به أمر الله في النفس وتعرف

به مقادير النعم عند تقدها ومكانة الاحسان الالهى في التفضل بها
« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »
أما أعمال الحج فقد كبر للانسان بأوليات حاجاته وتعهده بتتميل
المساواة بين أفرادها ولو في العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير
والصعولة والامير ويظهر الجميع في معرض واحد عراة الابدان
متجردين عن آثار الصناعة وحدث بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك
مع استبقائهم في الطواف والسعي والمواقف وليس الحجر ذكرى ابراهيم عليه
السلام وهو أبو الدين وهو الذي مما هم المسلمون واستقرار يقينهم على أن
لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الانعاز الكريم
في كل عمل « الله أكبر » أين هذا كله مما تجد في عبادات أقوام آخرين
يضل فيها العقل ويتمذرم معها خلوص السر للتزويه والتوحيد

كشفت الاسلام عن العقل غمته من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون
الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله
الكبرى في صنع العالم انما يجري أمرها على السنن الالهية التي قدرها الله
في علمه الازلي لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل
شأن الله فيها بل ينبغي أن يحكي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبي
صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والنمر آيتان من آيات الله لا يمسسذن
لمن أحد ولا يخافه فاذا رأيت ذلك فاذكروا الله » وفيه تصريح
بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية
الازلية على السنن التي أقامته عليها ثم لما طمأن الناس عن حال الانسان في النعم
التي يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التي يرزؤون بها ففصل بين

الامر من فصلا لا مجال معه للخلط بينهما فأما النعم التي يمنح الله بها بعض
الاشخاص في هذه الحياة والزبايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها
كالثروة والجواهر والقوة والبنين أو الفقر والضعف والضعف والفسق قد
لا يكون كسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج
أو طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة
الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا لئلا ينظروا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم
من العذاب المقيم في الحياة الاخرى وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من
عباده وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة
عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم «إنا لله وإنا اليه راجعون» فلا
غضب زيد ولا رضاعمر ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له
دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل
ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف
والذل بالجن وضياع السلطان بالظلم وارتباط الثروة بحسن التدبير في
الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك
مما هو مبين في علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه
الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحييد مطامح
الشهوات والدخول الى كل امر من بابها وطلب كل رغبة من أسبابها
وسنط الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير
والشر وغير ذلك من أصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم
ومشرذمة ساداتهم في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا ثوته

منها» ولن يسلب الله عنها نعمة مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته
ويتقصمها بضعفه حتى اذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة
الى مقبره واستبدل الله عزرة القوم بالذل وكثرهم بالقل وتعيمهم بالشقاء
وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في
غفلة ساهون « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق
عليها القول فدمرناها تدميرا » أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل
ثم لا ينفعهم الاثين ولا يجليهم البكاء ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال
ولا يستجاب منهم الدعاء ولا تكشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح
الاكرم فيستزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر
« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « سنة الله في الذين خالوا
من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أحل ما قاله العباس بن عبد
المطلب في استغاثه « اللهم إنه لم ينزل بلاء الا ذنب ولم يرفع الا بتوبة »
على هذا السنن جرى سلف الامة فينما كان المسلم يرفع روحه بهذه
العقائد السامية وبأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره
يظن أنه يزلزل الارض بدعائه ويشق القلك بيكاته وهو ولع باهوائه
ماضي في نوازله وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئا

حدث لفرات عن علي بن ابي طالب عليه السلام في امره ورواه عن
المنكر فقال « فلو انهم من كل فرق فتمهم طائفة يتفتقها في الدين
وليسندوا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم قرص ذلك في
قوله « واتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكفوا كل الذين تفرقوا واختلجوا

من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أ كفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعم القرطبي ونحوه كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الأماوين بالمعروف والنهي عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان في هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذي تقوم عليه أعمال البر والخير التي تنفع عنها أقدان الخيرات شرها لتلك الفريضة وأعلامها لتتأين الفرائض بل تنبها على أنها حفاظ الإيمان وملاكم أمره ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا يتنزهون عن منكره ما كانوا يفعلون » فقد ف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقتوه غضبه

فرض الإسلام للفقراء في أموال الأغنياء محققا معلوما يفيض به الآخرون على الأولين سدا للحاجة المعدم وتفريجا للكربة الغارم وتحسيرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لآبناء السبيل ولم يحث على شيء أخسه على الاتفاق من الأموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعل عنوان الإيمان ودليل

الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة
ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم في الرزق وأشعر
قلوب أولئك بحجة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين
فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس أجمعين وأى دواء لإعراض
الاجتماع أنجح من هذا « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل
العظيم »

أغلق الاسلام بابي الشر وسد أبواب فساد العقل والمال بتجريمه الخمر
والمقامرة والربا بتجريمها بالاهواء فيه

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصول الفضائل الاقى عليه ولا أما
من أمهات الصالحات الأحياء ولا قاعدة من قواعد النظام الاقرها
فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كاذ كرها حرية الفكر واستقلال
العقل في النظر ومبايعة صلاح السجاياء واستقامة الطبع ومقاومة إتهاض
العزائم الى العمل وسوقها في سبيل السعي ومن شلو القرآن حق تلاوته
يجد فيه من ذلك كثر لا ينفد وذخيرة لا تنفد هل بعد الرشد وصاية
وبعد كمال العقل ولاية كلاكدين الرشدين التي وائيه الاتباع
الهدى والانتفاع بما ساقته يدي الرحمة بلوغ الغاية من السعادتين لهذا
ختمت النبوات بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته
كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة
مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل
بعلقبول دعوة يزعم الفاسقهم أنه يتحدث عن الله بشرع أو يصدع عن

وحبه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب « ما كان محمد أباً لأحد من رجالكم
ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً »

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها

نظير في التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة
كذلك لكن يندش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى ان هذا
الدين يجمع اليه الامة العربية من أذناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين
سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من
قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان
السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد
ما يلقي حق من باطل أودى الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء
وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب
المستقيمين له وحرروا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء
غزيرة غير ان تلك القماء كانت عيون العزائم تتفجر من مخزور الصبر يثبت
الله عشهدا المستيقنين ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين فكانت
تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم تتجري
من مناخرهم جرز الدم الفاسد من المنصود على أيدي الاطباء الخاذقين
« ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه
جيباً منجوداً في جهة أدنى منهم الخاسرون » تأملت المثل المقتطفة من

كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخفقوا
دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والنفير للاغنياء
ولانصره الا انه الحق بين الباطل والرشد في ظلمات الاضاليل حتى
ظفر بالعهدة وتعزز بالمنعة وقد وطي أرض الجزيرة أقوام من أديان آخر
كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وجاؤا الناس على
عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ولا أنالهم
القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد
لها نظير في ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبغى رسالته بأمر
ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزوا
واستعوا واناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر
فبعث الله لهم لبعث في حياته وجرى على سنته الاثمة من صحابته طلبا
للامن وابلاغ الدعوة فاندفعوا في ضعفهم وفقيرهم يحملون الحق على
أيديهم وانما الواجب على تلك الامم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال
أهلها وعددها فظفر وامنهم بما هو معلوم وكانوا منى وضعت الحرب أوزارها
واستتر سلطان الفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم
البقاء على أديانهم وأقامت تسارداً اسنين طمئنين ريسرا جاسيتهم
عليهم ينعونهم مما ينعون منه أهلهم وأموالهم وفروضوا عليهم كفاً ذلك
جزء قليل من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين اذا
فتحوهم لمكة أتبعوا جيشها الطافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجئون على
الناس بيسرهم ويفترون مجالسهم ليحملوهم على دين الطافر وبرهانهم

الغلبة ومجتهم القوة ولم يقع ذلك لفتح من المسلمين ولم يعهد في تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاء معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل في نشره ويقفون مساعدهم على بث عقائدهم بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغالوين فضلا وإحسانا عندما كان يعدّها الاروبيون ضعة وضعفا رفع الاسلام ما تقل من الاتاوات وردّ الاموال المسلوقة الى أربابها واتزع الحقوق من مقتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدي قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكرام ولا رغبة في دنيا وصل الامر في عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا انه ينتص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صدق من سبيل الدين للمحاجة عرف خلفاء المسلمين ومالوكهم في كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة في كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش في اسبانيا اشتهرت حرية الاديان في بلاد الاسلام حتى هجر اليهود وأوربا فرار منها يدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أنطلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيارات لهم في القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا الا كراعيهم عليه شيأ من القوة وما كان من الجزية

لم يكن مما ينقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذي أقبل بأهل الأديان
 المختلفة على الاسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه
 أفواجا وبذلوا في خدمته ما يبذله العرب أنفسهم
 ظهور الاسلام على ما كان في جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية
 وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره
 بسكانها على الجادة القوية لحق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك
 هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به
 الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفه منهم سبيلا الى البقاء على
 العناد في مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركواما كان لهم بين قومهم
 صابرين أوقع ذلك من الريب في قلوبهم فتلذذهم ما حركهم الى النظر
 فيه فوجدوا الطفاورحة وخيرا ونعمة لاعقيدة تنفر منها العقل وهورائد
 الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهي
 القاصية في قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور
 من الاهوت بكاديه لوجهها عن العالم السفلي ويلحقها بالملكوت الاعلى
 ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات في اليوم وهو مع ذلك
 لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة
 ما يشق على النفوس البشرية تجشمه ويصبر منه لتعزيس رب حتى في
 توفية البدن حقه متى حسنت نية وخلعت السريرة فلما نزلت شهوة
 أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت
 الاوبة تبتت لهم سذاجة الدين عندما قرؤ القرآن ونظروا في سيرة
 الطاهرين من حامله اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه وما

تكني جولة تطرف في الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه كانت الام تطلب عقلا في دين فوافها وتطلع الى عدل في ايمان فأتاها فما الذي يحجم بها عن المسارعة الى طلبها والمبادرة الى رغبتهما كانت الشعوب تن من ضرر الامتياز التي رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤون الاديان متى عرضت دونها شهوات الاعلى فجاء دين يحدد الحقوق ويستوي بين جميع الطبقات في احترام النفس والدين والعرض والمال ويستوعغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأتي ببيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان في قطر كبير وما كان يريد لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره بردها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح لليهودي أن يخضع لمثل علي بن أبي طالب أمام القاضي وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضي الى أن قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذي حبيه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهراءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين في كل زمن روح الاسلام فكان من خاتمهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشر قلوبهم عداوتين خالفهم الابدان يجرحهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فإذا انقطعت أسباب الشعب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفتها من الدين والياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له رسم الكثرة منهم في هدمه بعلم وبغير علم ليقف الاسلام في انتشاره عند

حد خصوصاً في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤيته تجوع كثيرة
 من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لاسيف
 وراءها ولاداعي أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل
 من حركة الفكر في العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين
 الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاده من كل ملة انما كان لمسهولة
 تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجمل لان فطر البشر تطلب ديناً
 وترتاد منه ما هو أسرع بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى
 الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجذب الى القلوب منفذاً والى
 العقول محاصراً بدون حاجة الى دعاية يتفقون الاموال الكثيرة والافاق
 الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الجبال لاسقاط النفوس
 فيه هذا كان حال الاسلام في سداخته الاولى وطهارته التي أنشأ الله
 عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم
 قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب
 العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن
 باحدى اليدين والسيف بالآخرى يعرضون القرآن على المغلوب قال من
 يقبله فصل السيف بينه وبين حبيبته بهتت ذليلاً من عظيم ما قدمناه
 من معاملة المسلمين مع من دخل تحت سلطانهم عوفاً وارتب به الاخبار
 بؤاتراً حتى لا يقبل الريسة في جلته وان وقع اختلاف في تفصيله
 واعاشهم المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكف للعدوان عنهم ثم
 كان الافتتاح بعد ذلك من ضرور الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا

أنهم جاؤروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت
الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل في الرقاب لا كراء على الدين والارزاقه
مهتدا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش
ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك
العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر في شدته بعد مجيء
الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف
من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن هذا ولم يكن
السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعا من خلفه
يقولون ما يشاؤون تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة
تدق عن اللسنة وأموال تخلق أبواب المستضعفين ان في ذلك لآيات
للسيتقين

جلت حكمة الله في أمر هذا الدين سلبيل حياة تبع في القفار العربية
أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة
شعبية مليئة علامة حتى استغرق ممالك كانت تغتر أهل السماء
في رفعتها وتعلو أهل الارض عذبتها زلزل هديره على لينة ما كان
استحقر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان
لا يخجل من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال
انصرعة بين الحق والباطل والرشد والغي فائمة في هذا العالم الى أن
يقضى الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى أرض جديدة ليحيي ميتها

ويتق غلتها وينى الخصب فيها أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على
عقبة فعلاها أو يت رفيع العاد فهو يبه

سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار
وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض
زمنوا وتحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار
وكاد يتزعزع إلى ما وراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت إلى ديار المسلمين
أثم من التتابع قودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل وكانوا
وثنيين جاؤا فحضر الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا
الاسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم ففهم منهم ما علم غيرهم جاؤا لشقوتهم
فعا جوا بسعادتهم

حمل العرب على الشرق جملة واحدة لم يبق ملك من ملوك ولا شعب من
شعوبه إلا اشتبك فيها واستمرت المجدالات بين الغربيين والشرقيين
أكثر من مائتي سنة ججع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق
لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغت طاقته
وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب
الغريون على كثير من البلاد الإسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة
باجلاهم عمى هجاءاً وبما ذاربعو فنزل رؤساء الدين في غريب نار
تعوهم ليبيدوا ما ينشأون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك
الشعوب على ما يعتدون لأنفسهم الحق في الاستيلاء عليهم من البلاد
الإسلامية جاع من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعيان جهم غفير
وجاء من دونهم من الطبقات ما قنطروهم بالملايين استقر الملتام بكثير من

هؤلاء في أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب
العقول الى سكينتها تنظر في أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين
وتفعل بغيري وما تسمع فتبين أن المبالغات التي أطاشت الاحلام
وجسمت الآلام لم تصب مستقرا للحقيقة ثم رجعت حرية في دين وعلم
وشرع وصنعة مع كال في يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من
وسائل الايمان لامن العوادي عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله
وانطلقت الى بلادها قرية العين بما غنمته من جلالها هذا الى ما كسبه
السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم
عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من
ذلك العهد تتراسل والرغبة في العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم
لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين
والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا في معناه ولم يكن
بعد ذلك الاقليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح
والرجوع بالدين الى سداجته وجاءت في اصلاحها بما لا يبعد عن
الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح في العسة اذ الى
ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا في التبع رتب برحالة محمد صلى الله عليه وسلم
وأن ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى
الا في صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت
أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن فائدها لاهية عن
مرشدتها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التي تفاخر بها الاجيال

المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة هذا ظل من وابله أصاب أرضا
قابله تهازت وربت وأبنت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا
فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن في إلهاجة شعوبهم شفاء
ضعفهم وتقوية تركتهم قبا وأبوضوح شأنهم وضعفة سلطانهم وما
يذاه في شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفربه كثير من أهل
النظر في بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم
فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الأمور

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون إذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال
كتابه «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ستعنتهم في شيء» فما بال الملة
الاسلامية قد مزقتها المشارب وقرقت بين طوائفها المذاهب اذا كان
الاسلام موحدا فما بال المسلمين عتدوا اذا كان موليا وجهه العبد وجهه
الذي خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من
لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا
يكاد يراه نون ذلك فعلا من فصول التوحيد اذا كان أول دين خاطب
العقل ودعاه الى النظر في الاكوان والظواهر ليعتد به في شمس ربه
بما يسهه الامكان ولم يشترط عليه في ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان
فما بالهم قنعوا بالسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظمأ منه أنه
قد رضى الله بالجهل وأغفل النظر فيما أبدع من محكم الصنع ما بالهم
وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتسمونها ولا يجدونها ما بالهم

بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل أصبحوا مثلاً في القعود والكسل ما
هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم بقيم ميزان القسط بين
ما يندعوه وبين ما دعاهم إليه فتركوه إذا كان الاسلام في قربه من
العقول والقلوب على ما يشئ فإياه اليوم على رأى القوم تقصرون
الوصول إليه المتساؤل إذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فإياه
قرأ القرآن لا يقرؤه الاتعنيا ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الاتعنيا
* إذا كان الاسلام مخ العقل والارادة شرف الاستقلال فإياه
شدوها الى أغلال أى أغلال إذا كان قد أقام قواعد العدل فإياه
أغلب حكمهم يضربهم المثل في الظلم إذا كان الدين في تشوف الى
حرية الارقاء فإياه هم قضاؤنا في استعباد الاحرار إذا كان الاسلام
يعتد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فإياه هم قد فاض بينهم
الغدر والكذب والزور والافتراء إذا كان الاسلام يحظر الغيلة
ويحرم الخديعة ويوعده على الغش بان العاش ليس من أهله فإياه هم
يحنلون حتى على الله وشرعه وأوليائه إذا كان قد حرم الفواحش
ما ظهر منها وما بطن فإياه هذا الذي نراهم في السر والعلن والنفس
والبدن إذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين
خاصتهم وعامتهم وان الانسان في خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا
عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم
وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره فإياه هم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق
ولا يعصمون بنصير ولا يتناصحون في خير ولا شر بل ترك كل صاحبه

والتي حبله على غاربه فعاشوا أفذاذا وصاروا في أعمالهم أفرادا لا يحس
أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكان لم تجمعهم معه صلة
ولم تضمه اليموشيجة ما بال الابناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعقن
الامهات أين وشائج الرحمة أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق
الذي فرض في أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقي
في أيدي أهل البأساء

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوء الاعظم وشمس الكبرى
في الشرق وأهل في ظلمات لا يصرون أصبح هذا في عقل أو عهد في
نقل ألم ترى الذين تذوقوا من العلم شيأ وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق
بأوهام أكثرهم ان عقائد مخرافات وقواعده وأحكامه ترهات
ويجسدون لذتهم في التشبه بالمستهزئين عن سمو أنفسهم أحرار الافكار
وبعداء الانظار والى الذين قصر واهمهم على تصفح أوراق من كتبه
ووسمو أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يحافون
علوم النظر ويهزون بها ويرون العمل فيها عبثا في الدين والدنيا ويفتخرون
الكثير منهم بجهلها كأنه في ذلك قد هجر منكر أو ترفع عن دنيسة فن وقف
على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحي أن يظهر به بين
الناس ومن غترته نفسه بأنه على شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده يرى
العقل جنة والعلم ظنة أليس في هذا ما يشهد الله وملائكته والناس
أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما

كان ما جاء في الايراد قليل من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله
وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمون منهم
عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد آتيت في خاصة الذين
الاسلامي بما يكتفي للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم
معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكتفي في
الاعتراف بما ذكره من جميل أثره قراءة ورفات في التاريج على ما كتبه
محققوا الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد أسلفنا أن
الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد إليه نال من
السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الانساني
بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعى انكارا ولا الاصم
اعراضا وغاية ما قيل في الايراد ان أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح
المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو تجرع
الغصص من الامة والدواء في يده وهو لا يتناوله وكثير من يعودونه
أو يتشفون منه ويهيمون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعاقبون من
مثل مرضه وهو في أيام من حياته ينتظر الموت أو يتبدل الله في شفاء
أمثاله كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بينا أما المسلمون
وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون
الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم
بأن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه انما يخبر

عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايان بما جاء به ونعني بما
 جاء به ما صرح به في الكتاب العزيز وما نواتر الخبر به نواتر ما يستوفيا
 لشرايطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل نواطوهم على الكذب عادة
 في أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم في جنة
 وعذاب في نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف
 ويجب أن يقتصر في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة
 على ما هو قطعي بظني وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء من
 التزيه وعلا للمقام الالهي عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهن ظاهره
 ذلك في النواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليمه في العلم بعنايه مع
 اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بآويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فاعلم يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغه وصديق
 بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرض له شبهة في صحته وهو
 ليس من المتواتر فلا يظعن في ايمانه عدم التصديق به والاصل في جميع
 ذلك أن من أنكر شيأ وهو يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث به
 أو قرره فقد طعن في صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل في
 العلم بما نواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو ما في الكتاب وقبله من
 السنة في العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه
 فهم أخبار الغيب على ما هي في ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها
 بحقائق يقوم له الدليل علم امع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب
 وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيأ من قيمة الوعد

والوعيد ولا يتقضى شيأ من بناء الشريعة في التكليف كل مؤمنا حقا
وان كل لا يصح اتخاذ قدوة في تأويله فان الشرائع الالهية قد نظرت فيها الى
ما يبلغه طاقة العامة لا الى ما تشبه عقول الخاصة والاصل في ذلك أن
الايمان هو اليقين في الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد في ذلك
إلا احترام ما جاء على السنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم في مكان من الاهتمام وماهما
منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجلنا القول فيه الأولى جواز رؤية الله
تعالى في الآخرة والأخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات
من غير الانبياء من الأولياء والصديقين

أما الأولى فقد اشتهر فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المتزهين لا مجال معه
للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن
الرؤية لا تكون على المعبود من رؤية البصر المعروفة لنا في مجرى العادة
بل هي رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا يصير يختص الله
به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة في الحياة الدنيا وهو لا
يمكننا معرفته وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازاها
لم ينكروا انكشافها ساوينا فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود
أو بحاسة أخرى فهو في المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن متى
الاسلام يقوم يحجبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فاتفكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحق الاسفرايين من أكبر
أصحاب أبي الحسن الأشعري وعلى ذلك المعتزلة إلا أبا الحسين البصري
فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الأشاعرة واستدل الناهيون الى

الجواز بما جاء في الكتاب من قصة الذي عنده علم من الكتاب الواردة في خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها السلام وجسود الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات وأولوا ما جاء في الآيات أما أن ذلك يوقع الشبهة في المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لان ما في قصة مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه في عهد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتشف تلك الوقائع من شؤون الله في أنبياء ذلك العهد الا قليلا وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته في خلقه وذكرنا بها التعمير بمظاهر قدرته فليست من قبيل ما الكلام فيهم من عموم الجواز فبقى البحث في جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث في تناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير وفي مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس في مقامات الكمال من العناية الالهية وهو بحث دقيق فليختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلي وان صدور خارق للعادة على يد غير نبى عما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وانما الذي يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع الامة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولي كان ولا يكون بانكاره هذا مخالفا لشي من أصول الدين ولا ماثلا عن سنة صحيحة

ولا منحرفا عن الصراط المستقيم أين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذى
 به جهور المسلمين في هذا الايام حيث يظنون أن الكراميات وخوارق
 العادات أصبحت من ضرور الصناعات يتنافس فيها الاولياء
 وتتفاخر فيها همم الاصفياء وهو مما ينسب برأيه الله ودينه وأوليائه وأهل
 العلم أجمعون

خاتمة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما
 استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم
 من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك
 فأولئك هم الفاسقون» وقد فسر الكفر في هذه الآية بكفر النعمة
 «وأنا لما سمعنا الهدى أمنا به فممن يؤمن بربه فلا يخاف بخس أو لارهاقا
 وأنا من المؤمنين ومننا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحزنوا ارشدا وأما
 القاسطون فهم كانوا الجاهلهم خطبا وأن لو استقاموا على الطريقة
 لأسقيناهم ماء عذقا لنتفنتهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه
 عذابا باعداء وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام
 عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك
 به أحدا قل انى لأملك لكم ضرا ولا رشدا قل انى لن يجيرنى من الله
 أحد ولن أجد من دونه ملتحدا الا بلاغا من الله ورسالته ومن يعص
 الله ورسوله فإن له نارجهم خالدين فيها أبدا حتى اذا رأوا ما يوعدون

فسيعلمون

فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل إن أدري أقريب
 ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا
 إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا يعلم
 أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا
 صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وخشى الشيطان الرجيم وحق
 الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم

﴿تنت الرسالة﴾

(يقول المتوسل بجاء المصطفى خادم التصحيح بدار الطباعة محمود مصطفى)

الحمد لله المنفرد بالإيجاد الحكيم الذي أبدع ما خلقه وأجاد الموصوف
 سبحانه بصفات التأثير ولا معقب له المنزه جل جلاله عن المائلة
 والمساكلة والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى بحسن مجبه
 المكابرين وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة الدين (أما بعد) فقد
 وفق الله حضرة العالم العلامة الحبر البحر الفهامة محرز مباحث
 العلوم بجليل تحقيقاته ومنثور حوالا المشكلات بجميل تقيقاته
 ذي القدر الخطير الأستاذ الكبير الشيخ محمد عبده حفظه الله ورفع
 في الخافقين ذكره وعلاه إلى تأليف كتاب في فن التوحيد هو في باب ولا
 غر وفريد اللطيف من التسمي وأعذب من التسميم ترى أرج التحقيق
 منه عابقا وبدر التبيين في منازله شارفا جمع فيه من نفائس قواعد
 هذا الفن ومحكم مباحثه الغريبة على وجه حسن ما يبلغ به طالبه

غاية مطلوبه ويصل به راغبه الى منتهى مرغوبه ولما بدأ هذا الكتاب
 للعيان وكان بحسن بيانه رفيع الشأن بادرا الى طبعه لعموم نفعه
 الهمام الامجد ذى الخلق المستطاب حضرة السيد عرائس الخشب في
 المطبعة الزاهرة ببولاق مصر القاهرة ﴿ في ظل الحضرة الفخيمة
 الخديوية وعهد الطلعة الميمونة الدلورية من بلغت به رعيته غاية
 الأمانى أفندينا المعظم ﴾ (عباس باشا حلى الثانى) أدام الله أيامه
 ووالى على رعيته إنعامه ملحوظا هذا الطبع الجليل على هذا الشكل
 الجليل بنظر من عليه أخلاقه تنى حضرة وكيل المطبعة
 الاميرية محمد بك حسنى فى أوائل شهر محرم الحرام
 سنة ست عشرة بعد ثلثمائة وألف من هجرة
 من خلقه الله على أكمل وصف صلى
 الله عليه وسلم وعلى آله
 وصحبه وشرقه
 وكرم

